هنري ميللر



رامبو وزمن القتلة

ترجمة: سعدي يوسف



8
M

رامبو
وزمن القتلة

اهداءات ٢٠٠٢
دار المدى
سوريا

هنري ميللر

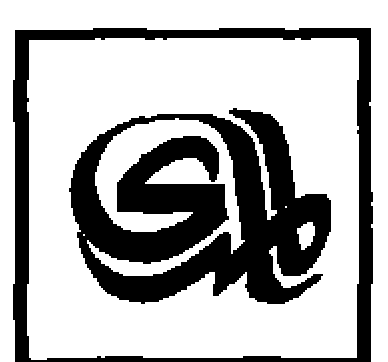
رامبو وزمن القتلة

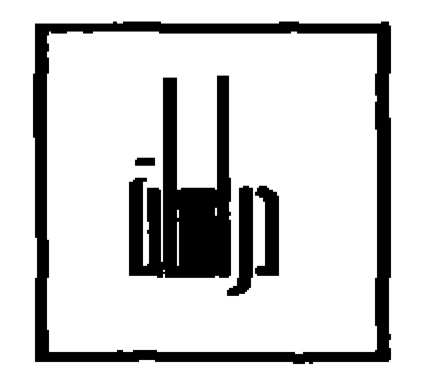
ترجمة: سعدي يوسف



منشورات

٤٦





اسم المـؤلف : هنري ميللر
عنوان الكتاب : رامبو و زمن القتلة
ترجمـة : سعدي يوسف
الناشـر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى : ١٩٩٨
الحقوق محفوظة

Author :Henry Miller
Title :Rimbaud and the Killers age
Translator: Saadi Yousif
Al- Mada : Publishing Company
First Edition 1998.
Copyright © Al-Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

١

تمهيد

في تشرين الأول ، الماضي ، بالضبط ، كان مر على ميلاد رامبو ، مائة عام .

في فرنسا كان الاحتفال بالذكرى المئوية مثيراً ، إذ دعي كتاب مشهورون ، من مختلف أنحاء العالم ، ليحجّوا إلى «شارلفيل» مسقط رأس رامبو . واتخذت الاحتفالات طابع مناسبة وطنية .

أما رامبو ، فربما تقَلّب في قبره .

منذ وفاة رامبو ، ترجمت أجزاء من آثاره الكثيرة إلى لغات عديدة ، بينها التركية والبنغالية . وحينما كان ما يزال ثمة إحساسٌ بالشعر والمغامرة الكبرى ، فإن اسمه على طرف كل لسان .

وفي السنوات الأخيرة ، انتشرت العبادة الرامبوية انتشاراً مدهشاً ، وازداد الأدب المكرس لحياته وآثاره ، واتسع بصورة قفزات ومسافات .

---

* في «الإشراقات» وردت صيغة «زمن القتلة» "LE TEMPS DES ASSASSINS" في البيت الأخير من قصيدة "MATINEE D'IVRESSE" :

NOUS AVONS FOI AU POISON.

NOUS SAVONS DONNER NOTRE VIE TOU ENTIERE TOUS LES JOURS

VOICI LE TEMPS DES ASSASSINS.

س . ي .

ولا يمكن القول إن شاعراً من العصر الحديث قد لقي نفس هذا الانتباه والاهتمام .

باستثناء «فصل في الجحيم» و«والإشرقات» ، لم تجد سوى قصائد قليلة طريقها إلى لغتنا ، وحتى هذه الترجمات القليلة تكشف عن تفسيرات متنوعة ، واسعة ، ولا بد منها .

لكن ، مهما كان اسلوب رامبو ، صعباً ، عصياً ؛ فإن هذا لا يعني أن رامبو ممتنع على الترجمة . إلا أن إنصاف آثاره أمرٌ آخر .

وعلينا ، في اللغة الانجليزية ، أن ننتج شاعراً قادراً على أن يقدم لرامبو ، ما قدمه بودلير لـ «پو» ، أو نرڤال لـ «فاوست» ، أو موريل ولاربو لـ «يوليسيس» .

وأود أن أوضح أنّ هذه الدراسة الصغيرة ، المكتوبة قبل عشر سنوات ، كانت نتيجة الإخفاق في ترجمة «فصل في الجحيم» بالصورة التي أردت .

وما يزال يراودني الأمل في إعطاء هذا النص ، اللغة الأكثر قرباً من اللسان «الزنجي» لرامبو .

إن مؤلفي الأغاني الزنجية ـ بالرغم من أنهم لايعلمون ـ هم أقرب إلى رامبو ، من الشعراء الذين عبدوه وقلّدوه .

لقد بدأنا ، الآن فقط ، نفهم ما فعله رامبو للّغة ، وليس للشعر وحده . هذا الفهم يجري بين القراء أكثر من الكتّاب ، في بلادنا ، بالأقل ، كما أشعر .

إن كل الشعراء الفرنسيين المحدثين ، تقريباً ، قد تأثروا برامبو . بل يستطيع المرء القول إن الشعر الفرنسي الجديد يدين بكل شيء لرامبو . لكن لم يستطع أحدٌ تجاوزه ، في الجرأة والإبداع . والشاعر الحي الوحيد القادر على منح شيء يقترب من بهجة رامبو وإثارته هو : سان جون بيرس .

والنص هذا ، ظهر ، في الأصل ، في قسمين من إصدارات «نيودايركشنز» السنوية ، تحت رقمي ٩ و١١ . ومنذ ذلك الحين ظهر

بالفرنسية والألمانية ، وكانت هاتان الطبعتان في سويسرا ، البلد الذي لا يستطيع المرء ربطه بعبقرية رامبو .

وفي هذه الطبعة ، جرى تغيير في ترتيب القسمين . ويمكنني أن أضيف أنني اعتزمت ، أصلاً ، كتابة قسمين آخرين ، لكنني تخليت عن تلك الفكرة .

وأنا أعتقد ، مخلصاً ، بأن أميركا تحتاج الى التعرف على هذا الكائن الأسطوري ، الآن ، أكثر من أي وقت مضى . (والمسألة هي نفسها بالنسبة لشاعر فرنسي خارق آخر ، انتحر قبل مائة عام في كانون الثاني الماضي ، هو جيرار دي نرڤال) .

ولم يمرّ على أميركا حينٌ من الدهر كان وجود الشاعر فيه مهدداً ، كما هو الأمر الآن . إن الأنواع الأميركية ، مهددة حقاً بالزوال ، سوياً ، وفي آنٍ .

عندما سمع كنيث ريكسروث بالموت المبكر لـ «دايلان توماس» أطلق «تذكارية» عنوانها «أنت لن تقتل» كتبها في بُحران وهجٍ أبيض ، ولم يكن يقصد نشرها ، لكنها وزعت فوراً ، وترجمت إلى عدد من اللغات .

إن كان لدى أي امرىء ، أية شكوك ، حول المصير الذي يخبئه مجتمعنا للشاعر ، فليقرأ هذه «التذكارية» عن الشاعر الويلزي الذي كتب «صورة الفنان جرواً» .

إن منزلة الشاعر وحالته ـ وأنا أستخدم الكلمة بمعناها الواسع ، والدقيق كذلك ـ تبين ، بدون شك ، الوضع الحقيقي لفاعلية شعب ما .

في الصين واليابان والهند وإفريقيا ، إفريقيا «البدائية» ، نرى الشعر ما يزال غير قابل لأن يُمحى . ومن يعوزنا ، بصورة واضحة ، في هذه البلاد ، بل من لا نحسّ حتى بأنه يعوزنا ، هو : الحالم ، المجنون الملهم .

أية أغنية للغول ، سنسمع ، حين يأتي زمن ، نهيل فيه التراب ، على هذا ؟ . هل سنركز انتباهنا على «عدم تكيف» الفرد المتوحد ، وهو المتمرد الحقيقي في مجتمع عفن!

بينما هؤلاء الأشخاص أنفسهم ، هم الذين يمنحون مغزى لمصطلح «عدم التكيف» الذي يساء استعماله .

في مقالة عن «سياسة بودلير» نشرتها مجلة «بوزار» في ٢٥ كانون الثاني ، ١٩٥٥ ، كتب موريس نادو ما يأتي : «في قلبي العاري إحساس دائم بالغربة عن العالم وطقوسه . إنه عالم البورجوازية حيث اخلاقية الصرّاف ، المرعبة . عالم الغيلان الجائع الى الماديات ، المفتون بنفسه ، غير المدرك انه داخلٌ الانهيار ، العالم الذي نعرف بنبوءة منفردة أنه سائر نحو التأمرك ، منذورٌ للحيوانية» .

الأمر المؤثر لدى شعراء القرن التاسع عشر البارزين ، وكذلك لدى شعراء القرن العشرين البارزين ، هو نغمتهم النبوية . لكن شعراءنا المتأخرين ـ خلافاً لـ «بليك» و«ويتمان» ذوي النظرة الكونية ـ يسكنون أعماق الغابة السوداء . إن سحر العهد الألفيَ السعيد الذي سيطر على ذوي الرؤى أمثال جواكيم دي فلوريس ، وهيرونيموس بوش ، وبيكوديلا ميراندولا ، والذي ما يزال إغراؤه ماثلاً أكثر من السابق ، هذا السحر استبدلت به عبودية الخراب التام .

وفي دوامة العتمة والفوضى القادمتين ، ينسحب شعراء اليوم ، واشمين أنفسهم بلغة خفية ، تغدو أكثر فأكثر ، غير ممكنة الفهم .

وبينما ينطفئون ، الواحد تلو الآخر ، تنحدر البلدان التي انجبتهم ، نحو قدرهم ومصيرهم .

إن فعل القتل ، سيبلغ غايته سريعاً ، وعندما يختنق صوت الشاعر ، يفقد التاريخ معناه ، وينفجر وعد الدينونة ، مثل فجر جديد مخيف ، على وعي الإنسان .

الآن فقط ، وعلى حافة الصراط ، يمكن ان ندرك أن «كل ما عُلمّناه زائف» ، ان برهان هذه القولة المدمرة بارز ، كل يوم ، وفي كل مكان : في

ساحة القتال ، والمختبر ، والمصنع ، في الصحافة ، والمدرسة ، والكنيسة .

إننا نحيا ، إطلاقاً ، في الماضي ، نتغذى بأفكار ميتة ، ومعتقدات ميتة ، وعلوم ميتة . الماضي هو الذي يستحوذ علينا ، لا المستقبل . فالمستقبل كان دائماً يعود ، وسيعود دائماً الى ـ الشاعر .

حين أفلت رامبو من العالم ، فلربما انقذ روحه من مصير أسوأ مما كان مقدراً له في الحبشة . ولربما قدمت لنا قصيدة «الصيد الروحي» ـ لو قُدِّر لها أن تستنقذ من التراب ـ مفتاحاً مفقوداً . ومن يدري ؟ فلربما أعطتنا حلقة الوصل بين «فصل في الجحيم» و«عيد ميلاد على الأرض» ، هذا العيد الذي كان يوماً ، واقعاً ، لدى الحالم المراهق .

في اللغة الرمزية للروح ، وصف رامبو كل ما يحدث الآن . وفي رأيي ان ليس ثَمّتَ تنافر بين رؤياه للعالم وللحياة الأبدية ، وبين رؤى مجددي الدين العظام .

إننا مدفوعون ، المرة تلو المرة ، الى ان نخلق رؤيا جديدة للسماء والأرض ، أن ندع الموتى يدفنون الموتى ، ان نحيا أشقاء في الجسد ، ان نجعل عيد ميلاد الأرض واقعاً . وإننا لمحذَّرون ، المرة تلو المرة ، ان لم تصبح شهوة الحياة الجديدة قناعة حية لكل واحد منا ، وأي واحد منا ، فإن الوجود الأرضي لن يكون أكثر من مَطْهرٍ أو جحيم .

إن السؤال الواحد الأحد الذي يواجهنا هو : الى أي مدى نستطيع تأجيل الحتميَ ؟

ترى ماذا علينا أن نقول ، حين نفكر بأن ولداً غراً هزَّ العالم من أذنيه ؟

أليس ثمتَ أمر معجزٌ في ظهور رامبو على هذه الأرض ؟ شأنه شأن يقظة غوتاما ، وتقبّل المسيح الصليب ، ورسالة خلاص جان دارك المذهلة ؟

فسِّرْ عمله كما شئت ، إشرح حياته كما أردت . . وسيظل نوراً لا يشحب . فالمستقبل كله له ، حتى لو لم يكن أمامنا مستقبل .

هنري ميللر ـ ١٩٥٥

٢

تناظرات، قرابات، التقاءات، أرجاع

كان ذلك عام ١٩٢٧ ، في القبو الغائر ، بمنزل قذر ، في بروكلين ، حين سمعت للمرة الأولى اسم رامبو . كان عمري ستة وثلاثين عاماً ، وكنت في أعماق «فصل الجحيم» المديد ، الخاص بي . وثمت كتاب عن رامبو في المنزل ، لكنبي لم أنظر إليه مرة . وكان السبب أني أكره المرأة صاحبة الكتاب ، والتي كانت تسكن معنا .

كانت في الملامح ، والمزاج ، والسلوك ـ مثلما اكتشفت مؤخراً ـ تشبه رامبو ، كما يمكن أن يتخيل المرء .

وكما قلت ، بالرغم من كون رامبو مادة الحديث الدائمة بين ثلما وزوجتي ، فإني لم أبذل جهداً لمعرفته . والحق انني ناضلت كالشيطان نفسه حتى أبعده عن خاطري ، وبدا لي ، آنذاك ، انه العبقري الشرير ، المسبب كل ضيقي وبؤسي .

ولاحظت أن ثلما ، التي أبغضها ، كانت تكتسب هويتها منه ، مقلدةً إياه ، قدر استطاعتها ، لا في السلوك ، فحسب ، بل في نوع الشعر الذي تنظمه . لقد تآمر كل شيء ، كي أرفض اسمه ، وتأثيره ، وحتى وجوده . كنت آنذاك في أسفل السافلين ، وكانت معنوياتي محطَّمة تماماً .

وأتذكرني جالساً في القبو البارد الرطب ، محاولاً الكتابة في ضوء

شمعة خافقة ، وبقلم رصاص . كنت أحاول كتابة مسرحية تتناول مأساتي أنا ، فلم أفلح في تجاوز الفصل الأول أبداً .

في حالة اليأس والعقم هذه ، كنت ، بصورة طبيعية ، شديد الارتياب ، بعبقرية شاعر في السابعة عشرة .

وبدا كل ما سمعته عنه ، من اختراع ثلما المخبولة .

وكنت قادراً على الاعتقاد بأنها تستطيع استنباط وسائل ماكرة لتعذيبي ، ما دامت تكرهني ، مثلما أكرهها .

كانت الحياة التي عشناها ، نحن الثلاثة ، والتي تحدثت عنها طويلاً في «الصلب الوردي» مثل حادثة في إحدى قصص دوستويفسكي ، غير واقعية ، غير قابلة لأن أصدقها ، الآن .

لكن المسألة ، هي أن اسم رامبو ، قد التصق .

وبالرغم من أنني لم أقم حتى بإلقاء نظرة على عمله ، إلا بعد ست سنوات أو سبع ، في منزل «أنيس نين» بـ «لوڤيسين» ، غير أن حضوره ، كان معي دائماً . كما أن تعارفنا كان مقلقاً :

«سوف تلتقي معي يوماً» . هذا ما ظل صوته يردده في اذنيَ .

ويوم قرأت أول بيت لرامبو ، تذكرت فجأة ، انه من «المركب السكران» القصيدة التي طالما هذت بها ثلما .

المركب السكران!

كم يبدو هذا العنوان معبراً في ضوء كل ما عانيته لاحقاً!

في هذا الوقت ، ماتت ثلما في مستشفى مجانين ، ولو لم أذهب أنا الى باريس ، وأبدأ العمل الجاد هناك ، للقيتُ المصير نفسه . لقد غرقت سفينتي في ذلك القبو بأعالي بروكلين . وعندما تهشمت عارضتها الرئيسية ، واندفعتُ نحو البحر المفتوح ، أدركتُ انني كنت حراً ، وان الموت الذي مررت خلاله . . قد حررني .

إن كانت تلك الفترة في بروكلين تمثل «فصل ـ ي ـ في الجحيم» ، فإن الفترة الباريسية ، وبخاصة من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٤ ، كانت فترة « إشراقات » ي .

عندما وقعت على عمل رامبو ، في ذلك الحين ، كنت أكتب بغزارة ، واندفاع ، وهياج ، لذا أبعدته جانباً .

كانت إبداعاتي أكثر أهميةً لديَ .

فبمجرد إلقائي نظرة على كتاباته ، عرفت ما ينتظرني .

لقد كان الديناميت الصرف .

لكن عليَ أولاً ، أن أقذف بإصبع ديناميتي الخاص .

آنذاك ، لم أكن أعرف شيئاً عن حياته ، سوى النتف التي التقطتُها من ثلما قبل سنين .

لذا ، كان لزاماً عليَ أن أقرأ سيرته .

وحـدث هذا سنة ١٩٤٣ ، أثناء سكناي في بقـرلي جلن ، مع جـون ددلي ، الرسام . . إذ قرأت للمرة الأولى عن رامبو .

قرأت «فصل في الجحيم» لجان ماري كاريّه ، ثم كتاب انيد ستاركي .

لقد استحوذ عليَ ، وعقد لساني . وبدا لي أنني لم أقرأ أبداً عن حياة ملعونة كحياة رامبو . نسيت عذاباتي ، التي تفوق عذاباته كثيراً . نسيت الإحباطات والمهانات التي عانيتها ، وأعماق اليأس والعجز التي غرقت فيها ، مرة بعد أخرى . وغدوت مثل ثلماً ، في تلك الأيام . . لا استطيع التحدث إلا عن رامبو . وكان على كل من يزورني أن يصغي إلى أغنية رامبو .

الآن فقط ، بعد ثماني عشرة سنة من سماعي اسمه للمرة الأولى ، استطيع أن أراه بوضوح ، وأن اقرأه قراءة المتبصر . الآن اعلم كم عظيمة كانت مأثرته ، وكم رهيبة كانت محنه . الآن أفهم مغزى حياته وعمله ـ بقدر ما يستطيع أحد القول إنه يفهم حياة وعمل الآخر . لكن ما أراه بوضوح أشد ، هو كيف نجوت ، بمعجزة ، من معاناة المصير الرديء نفسه .

عانى رامبو أزمته العظمى عندما كان في الثامنة عشرة ، حينها بلغ حدّ الجنون ، ومنذ ذلك الحين غدت حياته صحراء لا تنتهي . أما أنا فبلغت الحدّ بين السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين . . العمر الذي مات فيه رامبو . ومنذ ذلك الحين بدأت حياتي تزدهر . رامبو تحول من الأدب إلى الحياة . أنا فعلت العكس . رامبو هرب من السعالي التي خلقها ، أما أنا فقد عانقتها . لقد صحوت من حماقة وضياع الممارسة المجردة للحياة . هكذا توقفت ، ووجهت طاقاتي وجهة الإبداع . واندفعت في الكتابة ، بنفس اللهفة والحرارة اللتين وسمتا اندفاعي في الحياة . وربحت الحياة بدل أن أضيعها ، وحدثت المعجزات ، واحدة إثر الأخرى ، وبدّل كل حظ عاثر خيراً . أما رامبو ، فبالرغم من اندفاعه في أرض مناخات ومشاهد لا تصدّق . . في عالم فانتازيا غريب وبهيّ كقصائده ، إلا أنه غدا أكثر مرارة وانغلاقاً وفراغاً وأسى .

رامبو أعاد الأدب إلى الحياة . أنا أردت أن أعيد الحياة إلى الأدب . ولدينا نحن الإثنين تقوى الخاصية الاعترافية ، والانشغالات الأخلاقية والروحية . كما أن التلذذ باللغة والموسيقى أكثر من الأدب ، صفة مشتركة بيننا . مع رامبو أحسست بطبيعة بدائية تعبر عن نفسها بطرق غريبة . وصف كلوديل رامبو بأنه «صوفي في حالة متوحشة» ، وهو وصف ليس له مثيل . إن رامبو لا «يعود» إلى أي مكان . وكان لديّ هذا الإحساس ذاته إزاء نفسي .

التناظرات لا تنتهي ، وسوف اتناولها ببعض التفصيل ، ذلك لأنني في قراءة السير والرسائل رأيت وجوه الشبه واضحة إلى حد جعلني لا أقاوم تدوين ملحوظات عنها . ولا أظنني فريداً... في هذا ، بل اعتقد أن في العالم ، الكثير من رامبو وأن عددهم يزداد مع الزمن . وأرى أن النمط الرامبوي سيحل في المستقبل محل النمط الهاملتي أو الفاوستي .

إن الاتجاه سائر نحو انشطار اعمق . وإلى أن يموت العالم القديم

نهائياً ، فإن الفرد «الشاذ» سيكون ، أكثر فأكثر ، هو النموذج . ولن يجد الإنسان الجديد نفسه إلا حين تنتهي الحرب بين الجماعية والفرد . آنذاك سوف نرى النمط الانساني بكل امتلائه وبهائه .

***

من أجل أن نعرف «فصل في الجحيم» معرفة كاملة ، هذا الفصل الذي امتد ، لدى رامبو ، ثماني عشرة سنة ، علينا أن نقرأ رسائله . لقد أمضى معظم هذا الوقت على الشاطىء الصومالي ، وفي عدن عدة سنوات . وفيما يأتي وصف للجحيم على الأرض ، من رسالة إلى أمه :

«لا تستطيعين أن تتخيلي المكان : فلا شجرة ، حتى لو كانت ذاوية . ولا تربة . إن عدن فوهة بركان خامد مليئة برمل البحر . إنك لا ترين إلا الحمم والرمل في كل مكان ، هذه التي لا تُنبت أضأل نبت . وهي محاطة برمال الصحراء . وهنا تصدُّ جوانب فوهة بركاننا الخامد ، الهواء . وإننا لنشوى كما لو كنا في فرن جيريّ» .

كيف رضي إنسان عبقري ، مفعم بالطاقات العظيمة ، أن يسجن نفسه ، مشوياً ، متلوياً ، في غار تعس كهذا ؟

أمامنا ، هنا ، رجل لم تكن تكفي لديه ألف حياة لاكتشاف عجائب الأرض . . لكننا نراه ، عاماً بعد آخر ، مقطوعاً في هذا الغار الجهنمي . كيف تفسر الأمر ؟

نحن نعلم ، بالطبع ، أنه كان يصارع الأغلال ، ويدبر تدابير لا تحصى ، ومشاريع من أجل أن يعتق نفسه ، ليس فقط من عدن ، ولكن من كل عالم الكدح والعرق . إن رامبو ، وهو المغامر ، كان مسكوناً بفكرة الانعتاق التي ترجمها بصيغ الأمان الماليّ . في الثامنة والعشرين يكتب إلى أهله أن الأمر الأكثر أهمية وإلحاحاً لديه ، هو أن يغدو مستقلاً ، في أي مكان كان . لكنه

حذف ما ينبغي أن يضيفه وهو : وبأي طريقة كانت . كان مزيجاً غريباً من الوقاحة والحياء . كانت لديه الجرأة على المغامرة في أراض لم تطأها قدما رجل أبيض ، لكن لم تكن لديه شجاعة مواجهة الحياة بدون دخل ثابت . كان لا يخاف أكلة لحوم البشر ، لكنه يخاف أشقاءه البيض .

مع أنه كان يحاول جمع ثروة مريحة ، يستطيع أن يسافر بسببها ، ويطوف العالم ، متمتعاً ، مرتاحاً ، أو أن يستقر في مكان ما حين يجد البقعة المناسبة ، إلا أنه ظل الشاعر والحالم ، والإنسان غير المتكيف مع الحياة ، الإنسان المؤمن بالمعجزات ، الباحث عن الفردوس بشكل أو بآخر .

كان يعتقد أولاً أن خمسين ألف فرنك ستكون كافية لتأمين نفسه طيلة حياته ، لكنه ، ما أن كاد يجمع هذا المبلغ حتى قرر بأن مائة ألف هي التي تجعله اكثر أماناً .

هذه الفرنكات الأربعون ألفاً! أي زمن بائس مفزع قضاه ، وهو يحمل خميرته معه! لقد كانت هذه الفرنكات دماره عملياً . عندما حملوه من «هرر» إلى الساحل على محفة – وهي رحلة تمكن مقارنتها بدرب الآلام ـ كانت أفكاره تدور غالباً حول الذهب في هميانه . وحتى في مستشفى مرسيليا ، حيث بترت ساقه ، كان مصاباً بخميرته . وإن لم يكن الألم هو الذي يبقيه مستيقظاً ليالي عديدة ، فإنه التفكير بماله الذي يرتديه والذي عليه أن يخفيه حتى لايسرقه أحد . كان يريد إيداعه في مصرف ، لكن كيف يستطيع الذهاب إلى المصرف ، وهو لا يستطيع المشي ؟ إنه يكتب إلى بيته حتى يأتي أحدهم ويعتني بالكنز الثمين .

ثمة شيء فاجع ومضحك في هذا الأمر ، بحيث لايعرف المرء ماذا يقول أو يرى... أكثر .

لكن ماذا كان أصل جنون الأمان هذا ؟

إنه الخوف الذي يعرفه كل فنان مبدع : إنه غير مرغوب فيه ، ولا يفيد

العالم بشيء . كم تحدث رامبو في رسائله عن كونه غير صالح للعودة إلى فرنسا واستئناف حياة المواطن العادي . لاتجارة لدي ، لاحرفة ولاأصدقاء هناك . هكذا كان يقول . ومثلما يفعل كل الشعراء ، كان يرى العالم المتمدن غابة ، لايدري كيف يحمي نفسه فيها .

ويضيف أحياناً أن من المتأخر الآن التفكير بالعودة ـ إنه يتكلم دائماً كما لو كان شيخاً! ـ لقد اعتاد ، تماماً ، الحياة الحرة المتوحشة المغامرة ، بحيث لم يعد يستطيع العودة إلى أن يسرَج . كان أكثر ما يكرهه : الكدح الحلال ، لكنه في افريقيا ، وقبرص ، والجزيرة العربية كان يكدح مثل زنجي ، مقتراً على نفسه في كل شيء ، حارماً إياها حتى من القهوة والتبغ ، مرتدياً «الدشداشة» القطنية ذاتها ، موفراً كل قرش يربحه ، أملاً في أن يستطيع شراء حريته يوماً ، ونحن نعرف ، أنه حتى لو نجح ، فلن يشعر بالحرية ، لن يكون سعيداً ، لن يرفع عنه نير الضجر . لقد تحول من اندفاع الشباب إلى حذر الشيخ . كان تماماً ، الطريد ، والمتمرد ، والملعون ، الذي لايمكن أن ينقذه شيء .

إنني أشدد على هذه الناحية في طبعه ، لأنها تفسر العديد من التصرفات السيئة المنسوبة إليه . لم يكن شحيحاً ، ولا فلاحاً في قلبه ، كما يقول بعض كتّاب سيرته . لم يكن قاسياً على نفسه . كان فعلاً ، كريم الطبع . يقول باردي أحد مستخدميه القدماء «كان إحسانه بذلا طبيعياً غير مدّع ، وربما كان هذا الإحسان من الأمور القليلة التي يفعلها دون ازدراء أو استخفاف» .

وثمة فزّاعة أخرى ، كانت تؤرق أيامه ولياليه : الخدمة العسكرية . فمنذ أن بدأ تطوافه ، حتى يوم وفاته كان يعذبه الخوف من السلطات العسكرية . ولقد كان ، حتى قبل أشهر من موته ، في مستشفى مارسيليا ، وهو مبتور الساق متضاعف الآلام... خائفاً من أن تكشف السلطات العسكرية

مكانه ، وترسله إلى السجن . كان هذا الخوف يرهقه كالجذام . «أيكون السجن ما سأعانيه ؟ إن الموت أفضل!» كان يرجو أخته ألا تكتب إليه إلا في الضرورة الماسة ، وأن تكتب ، عنوانه باسم «رامبو» فقط ، لا آرثر رامبو ، وأن تبعث برسائلها من مدينة مجاورة لمدينتها .

إن نسيج شخصيته ليبدو أمامنا عارياً في هذه الرسائل الخالية تماماً من أي قيمة أدبية أو فتنة . إننا لنرى فيها جوعه العارم إلى التجربة ، وحب استطلاعه الدائم ، ورغباته التي لاتُحدّ ، وإيذاءه النفس ، وزهده ، وقناعته ، مخاوفه ، وكوابيسه ، وضيقه ، وتوحّده ، وإحساسه بالنبذ . ونرى فوق هذا كله أنه كان مثل كل الأفراد المبدعين ، غير قادر على أن يتعلم من التجارب ، ليس ثمة إلا دورة متكررة من التجارب المتشابهة والعذابات . إننا نراه ضحية توهم أن الحرية يمكن نيلها بوسائل خارجية . نراه يظل المراهق طيلة حياته ، رافضاً قبول المعاناة أو إعطاءها القيمة . ولكي نقدّر فداحة إخفاقه في نصف حياته الأخير ، علينا ، أن نقارن تطوافه بتطواف كابيزا دي ڤاكا .

لكن ، دعونا نتركه وسط الصحراء التي خلقها لنفسه . وقصدي ، الإشارة إلى تناظرات وقرابات ومراسلات وأرجاعٍ معينة . لنبدأ بوالديه : مثل السيدة رامبو ، كانت أمي ، امرأة شمالية ، باردة ، نقّادة ، متكبرة ، غير متسامحة ، وطُهرية . أما أبي فكان جنوبياً ، من والدين باڤاريين ، بينما كان والد رامبو بورجندياً . وكان هناك صراع وخلاف مستمران بين الأم والأب ، مع الأرجاع المعتادة على الإبن . إن الطبع المتمرد ، ذا المراس الصعب الذي لايمكن ترويضه ، يجد هنا رحمة . ومثل رامبو ، بدأتُ في وقت مبكر أصرخ : «لتمت الرحمة!» كان هذا ، موت كل شيء يرضاه الوالدان ويقبلانه . ولقد امتد هذا حتى إلى أصدقائهما الذين كنت أهينهم أمامهما حتى حين كنت ولداً . ولم يتوقف العداء حتى وأبي على فراش

الموت فعلاً... عندما بدأت اعرف كم أُشبهه . مثل رامبو ، كرهت مسقط رأسي ، وسأظل أكرهه إلى مماتي . كان هاجسي المبكر أن أفلت من بيتي ، والمدينة التي أمقت ، والوطن ومواطنيه الذين لايجمعني بهم جامع . مثله ، أيضاً ، كنت مبكر النضج ، أردد القصائد بلغة أجنبية صغيراً . لقد تعلمت المشي والكلام قبل الأوان ، ، وقراءة الصحيفة حتى قبل أن أذهب إلى روضة الأطفال . كنت دائماً أصغر تلميذ في الصف... وأفضل تلميذ ، بل المفضل لدى معلميَ ورفاقي . لكن ، كنت مثله أيضاً ، أحتقر الجوائز والهدايا التي تقدم لي ، ولقد طردت من المدرسة ، مراراً ، بسبب سلوك منحرف . وبدا أن رسالتي في المدرسة هي السخرية من المعلمين والمنهج . كانت المدرسة ، بكل ما فيها ، سهلة جداً ، وغبية جداً ، بالنسبة لي . وأحسست أنني مثل قرد مدرب .

منذ طفولتي المبكرة كنت قارئاً نهماً . وفي عيد الميلاد كنت أطلب الكتب فقط... عشرين أو ثلاثين كل مرة . وإلى أن بلغت الخامسة والعشرين ، أو مايقارب ذلك ، لم أغادر البيت أبداً بدون أن أتأبط كتاباً . كنت أقرأ وأنا واقف ، وأنا في طريقي إلى العمل ، وأحفظ مقاطع شعر طويلة من شعرائي المفضلين . وأتذكر أن «فاوست» غوته كان من بين هذه الكتب . أما النتيجة النهائية لامتصاص الكتب المستمر هذا ، فكانت إلهابي لثورة أبعد ، وحثَ رغبتي الراقدة في السفر والمغامرة ، وجعلي ضد أهل الأدب . صرت أحتقر كل ما يحيط بي مبتعداً بالتدريج ، عن اصدقائي ، وفارضاً على نفسي ذلك الطبع المتوحد المرير الذي لايمكن أن يدعى صاحبه إلا فرداً «غريباً» . ومن سن الثامنة عشرة (سنة أزمة رامبو) غدوت ، بالتحديد ، شقياً ، محطماً ، بائساً ، يائساً ، ولم يكن بالإمكان الخلاص من هذه الحال إلا بتغيير ظروفي تغييراً كاملاً . في الحادية والعشرين أفلتُ... لكن لوقت قصير . ومرة أخرى ، مثل رامبو ، كانت الهروبات

المفتوحة أمامي ، ذات نتائج خائبة تماماً . وكنت ، دائماً ، أعود إلى بيتي ، بإرادتي ، أو بغير إرادتي... وفي وضع يائس دائماً .

كان يبدو أن ليس ثمة مخرج . اشتغلت بمعظم الأعمال الغريبة ، وباختصار ، اشتغلت في كل شيء لايناسبني . ومثل رامبو في مقالع الحجر بقبرص ، عملت بالرفش والمعول ، عامل مياومة ، متنقلاً ، أفّاقاً . بل أشبهتُ رامبو حتى في هروبي من منزلي... إذ كنت أقصد –مثله– أن أحيا حياة طليقة ، لا أقرأ فيها كتباً مرة أخرى ، معتمداً في معيشتي على يديّ ، أن أكون رجل الأجواء المفتوحة لا مواطن : حاضرةٍ أو مدينة . لكن لغتي وأفكاري كانت تخونني دائماً . كنت تماماً ، الأديب سواء أردت هذا أم لم أرده . ومع أنني كنت أستطيع تدبير أمري مع أي فرد ، كائناً من كان ، وبخاصة الفرد العاديّ ، غير أني أغدو ، في آخر الأمر ، الشخص المشكوك فيه .

وهكذا كانت زياراتي إلى المكتبة : أطلب دائماً الكتاب المغلوط . ومها كانت المكتبة كبيرة . فإن الكتاب الذي أريده ، لن يكون فيها ... أو أن هذا الكتاب يمنع عني .

وبدا لي ، تلك الأيام ، أن كل ما أريده في الحياة ، أو من الحياة محرَّمٌ عليّ . طبيعي أنني كنت مذنباً في أكثر التجريمات عنفاً . إن لغتي التي كانت نابيةً ، حتى وأنا طفلٌ ـ أتذكر أنني جُررت إلى مركز الشرطة ، في السادسة من عمري ، لاستعمالي لغة سليطة ـ لغتي هذه ، غدت ، أكثر نبوّاً وسلاطة .

أي رجة أحسست بها ، حين قرأت أن رامبو ، وهو شاب ، كان يوقع رسائله بـ «ذلك التعس عديم القلب» . كانت «عديم القلب» صفةٍ أغرمت بسماعها ملصقةً بي . ليست لدي مبادئ ، ولا ولاءات ، ولاقواعد سلوك... مهما كانت ، وأستطيع حين يحلو لي الأمر أن أكون شديد القسوة مع الصديق والعدو على حد سواء وعادةً ، أجزي الحسنة بالإهانة والتجريح .

كنت سافلاً ، متغطرساً ، غير متسامح ، شديد التحامل ، عنيداً بلا هوادة ، وباختصار ، كانت لي شخصية متميزة بأنها غير مقبولة ، وصعبة المراس ، عصية على التعامل معها .

وبالرغم من هذا ، كنت محبوباً . وكان يبدو أن الناس شديدو التوق لأن يغفروا صفاتي السيئة مقابل البهجة والحماسة اللتين أوفرهما . لكن هذا الأمر لم يزدني إلا جرأة على حريات أخرى . وأتعجب ، أحياناً ، كيف أستطيع المضيّ في هذا الوضع . الناس الذين أحب ، أن أهينهم وأجرحهم أكثر ، هم الذين يرون أنفسهم خيراً مني ، على هذا النحو ، أو ذاك . إنني أشن على هؤلاء حرباً لاترحم . تحت هذا كله ، كنتُ ، مثلما تستطيع القول ، ولداً طيباً .

كان مزاجي الطبيعي أنني فردٌ ، عطوف ، فرح ، مفتوح القلب .

وفي فتوتي ، كثيراً ما كنت أوصف بـ« ملاك » ، لكن شيطان التمرد استحوذ عليّ . في سن مبكرة جداً . كانت أمي هي التي زرعت هذا التمرد فيّ . لقد وجهتُ ضدها ، وضد كل ما تمثله ، طاقتي المتفجرة . ولم أشعر إزاءها بالحنان أبداً ، إلى أن بلغت الخمسين من عمري .

ومع أنها لم تكن تقف بوجهي عادة (لأن إرادتي كانت الأقوى وحسب) ، إلا أني كنت أشعر دائماً بظلها يقطع الطريق عليّ . كان ظلاً من عدم الرضا ، صامتاً منسرباً ، مثل سمٍّ يزرق ببطءٍ في العروق .

ولقد دهشت حين قرأت أن رامبو سمح لأمه بقراءة « فصل في الجحيم » . فأنا لم أحلم ، البتة بأن أُري والديّ ما كتبته ، أو حتى أن أناقش موضوع كتابتي معهما . وقد اعتراهما الرعب حين أخبرتهما ، أول مرة ، بأنني اخترت أن أكون كاتباً... كما لون أنني أخبرتهما باعتزامي أن أغدو مجرماً . لِمَ لا أستطيع أن أفعل شيئاً حصيفاً ؟ شيئاً يمكّنني من تدبير معيشتي ؟ إنهما لم يقرءا سطراً مما كتبت . وكانت مزحة دائمةً أن يسأل

أصدقاؤهما عني ، ويستفسروا عما أعمل . «ماذا يعمل ؟ آه يكتب...» كما لو أنهما يقولان إنه مخبول... يصنع فاصولياء من الطين... طوال النهار .

صورتُ لنفسي أن رامبو كان مدللاً في طفولته كفتاة ، وفي صباه كـ«غندور» . وهكذا كان الأمر معي . وباعتبار أن أبي كان خياطاً ، فقد كان طبيعياً أن يهتم والدي بقيافتي ، وعندما كبرتُ ورثت خزانة ملابس والدي الأنيقة النفيسة . كنا ذوي مقاس واحد . لكني ، مثل رامبو ، ثانيةً ، خلال الفترة التي بدأت فرديتي تؤكد نفسها بقوة ، أخذت أكبر نفسي ، بصورة مضحكة ، مقابلاً الاختلافات الداخلية بتلك الخارجية . وكنت ، كذلك ، موضع سخرية في الحي الذي أعيش فيه . وآنذاك أتذكر إحساسي بالارتباك ، وعدم الثقة بالنفس ، وبالخجل من التحدث مع الرجال أيّا كانوا . «لاأعرف كيف أتحدث!» هكذا هتف رامبو في باريس عندما كان محاطاً بالأدباء . لكن من يستطيع التحدث خيراً منه إذا انطلق ؟ حتى في إفريقيا ، عُرِف بأي طلاوة كان يتكلم أحياناً . كم أعرف هذه المعضلة جيداً ! أي ذكريات مؤلمة لي عن التلعثم والتأتأة بحضرة رجال طالما تقت إلى التحدث معهم! لكني ، من ناحية أخرى ، حين أكون منفرداً ، أستطيع التحدث بألسنة الملائكة . منذ الطفولة كنت أعشق صوت الكلمات ، بسحرها ، وقدرتها الفتانة . غالباً ما ألجأ إلى تأثيرات صوتية ، دافعاً مستمعيَ إلى حافة الهستريا . هذه الميزة ، هي التي اكتشفتها ، مصادفة ، عند رامبو ، لحظة نظري إلى صفحة من صفحاته . وثبت أثرها عندي كالطفلة . في بقرلي جلن ، آن كنت منغمساً في حياته ، سطرت بالطباشير أشعاره على الحائط ـ في المطبخ ، في غرفة المعيشة ، في المغاسل ، وحتى في البيت . إن تلك الأشعار لن تفقد قوّتها لديّ أبداً . وكلما مررت بها انتابتني الرعشة نفسها ، والبهجة ذاتها ، وذلك الخوف من فقداني العقل لو توقفت عندها طويلاً . كم عدد الكتّاب الذين يفعلون بك هذا ؟ كل كاتب ينتج مقاطع

تسكنك ، أو أشعاراً تتذكرها ، لكنها عند رامبو لاتحصى . إنها مبثوثة عبر الصفحات ، مثل جواهر اسّاقطت من صدر منخوب بالرصاص . هذه الهبة تجعل العلاقة مع رامبو ، لاتنفصم . وهي وحدها التي أحسد رامبو عليها . واليوم ، بعد كل ما كتبت ، أجد رغبتي الأعمق في التخلص من الكتب التي ألفتُها ، وفي أن أقف نفسي على خلق الهراء الخالص ، الفانتازيا الخالصة . لن أكون الشاعر الذي هو رامبو ، لكن ثمة أبعاداً خيالية شاسعة ، مايزال بالإمكان بلوغها .

والآن نأتي إلى «الفتاة بنفسجية العينين» ، نحن لانكاد نعرف عنها شيئاً . نعرف فقط أنها كانت تجربته الفاجعة الأولى في الحب ، ولست أدري إن كان يعنيها ، أو يعني ابنة صاحب المصنع ، حين استخدم تعبير «مقدسة مثل ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جوٍ بودلي حديث الولادة» . لكني أعتقد جيداً أن رد فعله إزاء موضوع عاطفته ، كان هكذا . على أي حال ، أعرف أنها فتاتي ، وأن لها أيضاً عينين بنفسجيتين . ومن المحتمل أني سأفكر بها ثانية مثل رامبو ، على فراش الموت . كل شيء تلوَّن بالتجربة الأولى الخائبة . والأغرب في الأمر كما يجب أن أضيف ، أنها لم تكن هي التي رفضتني... كنت أهرب منها ، وأتصور أن الأمر كان نفسه لدى رامبو . لديه ، طبعاً ، ضُغط كل شيء ـ حتى الثامنة عشرة ـ في مدة زمنية بالغة القصر إلى حد مذهل . ومثلما مرّ مسرعاً بكل عالم الأدب ، في سنوات قليلة ، مر بالتجربة الاعتيادية مسرعاً ، وفي زمن قصير . كان يكفيه أن يذوق شيئاً ، حتى يعرف مؤداه ومحتواه . وهكذا كانت حياته في الحب ، ثانيةً ، إلا في الحبشة ، عندما اتخذ امرأة حبشيةٍ ، عشيقة . ويحس المرء كما لو أن الأمر لم يكن حباً . وإن حدث شيء من هذا ، فإن حبه كان موجهاً إلى صبيه «جامي» من «هرر» ، الذي حاول أن يخلف له وصية . ومن الصعوبة ، بسبب الحياة التي عاشها رامبو ، احتمال أنه أحبَ ثانيةً ، بملء قلبه .

روي عن ڤرلين أنه قال بأن رامبو لم يعطِ نفسه ، البتة ، سواء لإلهٍ أو لإنسان . أما مقدار صدق هذه القولة ، فبإمكان أي شخص أن يقدم حكمه الخاص ، لكني أرى أنه لم يرغب أحدٌ في أن يعطي نفسه ، مثلما رغب رامبو . لقد أعطى الله نفسه وهو طفلٌ ، وأعطى العالمَ نفسَه وهو رجلٌ . وفي كلتا الحالتين أحسَّ بأنه قد تعرّض للخديعة والخيانة ، فالتفّ على نفسه ، خاصةً بعد الكومونة... لكن أعماقه ظلت سليمة ، غير مستسلمة ، غير ممكنٍ بلوغُها . وهو يذكرني ، هنا بـ«د . هـ . لورنس» ، الذي ليس لديه الكثير ليقوله حول هذا الموضوع ، أي حول الحفاظ على أعماق الإنسان سليمةٍ .

منذ اللحظة التي بدأ فيها يعمل من أجل العيش ، بدأت متاعبه الحقيقية . وبدت مواهبه كلها ، وهو يملك الكثير ، بدون فائدة . وبالرغم من كل المثبطات كان يشق طريقه : «إلى الأمام ، إلى الأمام دائماً!» . إن طاقته لاتُحَدَ ، وإرادته لاتلين ، وجوعه لايُشبَع . «دع الشاعر ينفجر بتوتره نحو أشياء لم يسمع بها أحدٌ! ، ولم يُسَمّها أحد!» . حين أفكر بهذه الفترة ، المتميزة بجهد يكاد يكون مجنوناً من أجل منفذ إلى العالم ، من أجل موضع قدمٍ فيه ، حين أفكر بالاندفاعات المتكررة في هذا الاتجاه أو ذاك ، مثل جيش محاصَر يحاول الخلاص من القبضة المحكمة عليه كاللعنة... حين أفكر بهذا كله أرى شبيبتي نفسها ، ثانيةً . ثلاث مرات ، وهو دون العشرين ، بلغ بروكسل وباريس . مرتين بلغ لندن . ومن شتوتجارت ، بعد أن تمكن من لغة ألمانية كافية ، طوّف مشياً على قدميه ، عبر فورتمبرغ وسويسرا ، ليبلغ إيطاليا . ومن ميلانو شرع يمشي قاصداً جزر السيكلاديس [في بحر إيجة] ، عبر برنديزي ، ليصاب بضربة شمس ، ويعاد إلى مرسيليا عن طريق ليكورن . وغطى بتجواله شبه الجزيرة الاسكندنافية مع كرنفالٍ متنقل ، وأبحر من موانئ

هامبورج ، وانتويرب ، وروتردام ، ووصل إلى جاوة بعد أن انخرط في الجيش الهولندي ، ليفرّ منه .

ومرة ، حين مرّ بجزيرة «سانت هيلانة» على ظهر سفينة إنكليزية رفضت الرسوّ هناك ألقى بنفسه في البحر ، لكنه أعيد إلى السفينة قبل بلوغه الشاطئ . من فيينا اقتادته الشرطة إلى الحدود البافارية باعتباره متشرداً . ومن هناك اقتيد ، ثانية ، إلى حدود اللورين . وفي كل هذه الإفلاتات والاندفاعات ، كان مفلساً دائماً ، ماشياً أبداً… طاوياً عادة . في شڤيتاڤيشيا بلغ الشاطئ مصاباً بحمى معدية ناتجة عن التهاب جدران الأمعاء بسبب احتكاك أضلاعه بجوفه . المشي المفرط . وفي الحبشة ركوب الجياد المفرط . الإفراط في كل شيء . كان يرهق نفسه بصورة لاإنسانية . والهدف بعيدٌ دائماً .

كم أفهم هذا الجنون جيداً ! وحين أستعيد حياتي في أمريكا ، يبدو لي أنني قطعت آلاف وآلاف الأميال على معدة خاوية . باحثاً دائماً عن قروش قليلة لكسرة خبز ، لعمل ، لمكان استراحة .

أبداً أبحث عن وجهٍ ودود : وأحياناً ، حتى وأنا جائع ، كنت أنطلق إلى الطريق ، فأوقف سيارة عابرة ، وأدع السائق يضعني حيث يشاء ، فقط لأغير المشهد . أعرف آلاف المطاعم في نيويورك ، ليس من زيارتي لها سيداً ، بل من طول وقوفي خارجها محدقاً في الطاعمين جالسين على الموائد داخلها . وأستطيع حتى الآن استرواح أماكن وقوف معينة في زوايا الشوارع حيث يقدم «الهوت دوج» ، أستطيع حتى الآن رؤية الطباخين ذوي الملابس البيض ، وراء النوافذ ، وهم يضعون الفطائر المحمصة Wabbles والفلبك Flapjacks في المقلاة . أحياناً أفكر بأنني ولدت جائعاً . ومع الجوع… المشي… التشرد ، البحث ، محموماً ، تائهاً ، جيئة وذهاباً . إن أفلحت في شحاذة ما يزيد قليلاً على وجبة ضرورية ، ذهبت فوراً إلى المسرح أو

السينما . وكل ما أهتم به ، حين تمتلئ معدتي ، أن أجد مكاناً دافئاً أنيقاً أرتاح وأنسى فيه متاعبي ساعة أو ساعتين . ولا أوفر شيئاً في مثل هذه الظروف ، للعناية بأمري... فبمجرد تركي دفء المسرح المشابه لدفء الرحم ، أمضي في البرد والمطر ماشياً إلى المكان البعيد الذي صادف أني أسكن فيه . من قلب بروكلين إلى قلب مانهاتن مشيت مراتٍ لا تحصى ، في مختلف ظروف الطقس ، ومختلف درجات الطوى . وعندما أُنهك تماماً ، وأعود غير قادر على أن أخطو خطوة واحدة ، أكون مرغماً على الاستدارة ، متتبعاً آثار خطاي . إنني أستطيع أن أفهم كيف يدرب الجنود على أداء مسيرات إجبارية بالغة الطول ، وهم جياع . لكن الأمر ليس واحداً ، حين تمشي في شوارع مدينتك الأصلية بين وجوهٍ عدوة ، وحين تكون متشرداً على الطريق العام في ولايات مجاورة . في مدينتك الأصلية تكون العداوة هي اللامبالاة ، بينما يواجهك في المدن الغريبة عنصرٌ مُعادٍ غرزياً . فثمة كلاب متوحشة ، وبنادق صيد ، وشرفاء شرطة ، وحرس من كل نوع ، بانتظارك . وأنت لا تستطيع التمدد على الأرض الباردة إن كنت غريباً عن تلك الناحية . أنت تظل سائراً ، سائراً ، سائراً ، طوال الوقت . وفي ظهرك تحس بفوهة المسدس الباردة ، وهي تطلب منك أن تسير أسرع ، أسرع ، أسرع . إنها ، بعد هذا ، بلادك ، التي يحدث فيها هذا كله ، وليست أرضاً أجنبية .

قد يكون اليابانيون قساة ، والهون برابرة ، لكن أي شياطين هؤلاء الذين يبدون مثلك ، ويتكلمون مثلك ، ويلبسون اللبوس ذاته ، ويأكلون المأكل نفسه... ويطاردونك ككلاب الصيد ؟ أليس هؤلاء ألدّ أعداء يمكن أن يجدهم المرء ؟ قد أجد اعذاراً للآخرين ، لكنني لا أجد أي عذر لذوي المرء أنفسهم . غالباً ما كتب رامبو إلى أهله يقول «ليس لي أصدقاء هنا» . وحتى في حزيران ١٨٩١ ، ومن مستشفى مرسيليا ، كان يعيد النغمة نفسها . «أموت حيث يلقي بي القدر . آمل أن تكون لديَ القوة للعودة إلى حيث

كنت (الحبشة) ، فلي هناك أصدقاء سنوات عشر ، يشفقون عليّ . لقد وجدت عندهم العمل ، وعشت كما اردت . سأعيش دائماً هناك ، أما في فرنسا ، وباستثنائك ، فليس لي أصدقاء ولا معارف... لا أحد » .

وثمة هامش نقرأ فيه ما يأتي :

«مع مجد رامبو الأدبي ، الذائع في باريس ، فإن محبيه المخلصين كثارٌ . إنه يتجاهلهم . أي لعنة! » أجل ، أي لعنة! افكر بعودتي أنا الى نيويورك ، وهي عودة إجبارية أيضاً ، بعد سنوات عشر في الخارج . لقد غادرت امريكا ، وليس معي الا عشر دولارات استدنتها في اللحظة الاخيرة قبل ان استقل السفينة ؛ ثم عدت بلا قرش ، مستديناً أجرة السائق من موظف الفندق الذي ظن حين رأى حقائبي وأغراضي أن لديّ ما ادفع به قائمة الفندق .

كان أول ما عليّ أن افعله بعد بلوغي «الوطن» أن اتصل هاتفياً بأحدهم بغية قليل من الدراهم . وخلافاً لرامبو ، لم يكن لديّ هميان مليء بالذهب ، خبيء تحت الفراش . لكن ساقيّ ما تزالان سليمتين ، وهكذا في الصباح ، لو لم يأت العون في المساء ، سوف أبدأ المشي عبر المدينة بحثاً عن وجه ودود ، ثانية . تلك السنوات العشر ، في الخارج ، اشتغلت مثل عفريت ، ووفرت لنفسي حق العيش المريح عاماً أو نحوه . لكن الحرب تدخلت ، وحطمت كل شيء ، تماماً مثلما خيبت دسائس الدول الأوروبية فرص رامبو في الصومال .

كم يبدو أليفاً هذا المقطع من رسالة مؤرخة في كانون الثاني ١٨٨٨ ، من عدن... «كل الحكومات جاءت لتبتلع الملايين (وحتى المليارات) على كل هذه السواحل اللعينة الحزينة ، حيث يظل اهل البلاد شهوراً بلا غذاء ولا ماء ، تحت أقسى مناخ في الأرض . وكل هذه الملايين الملقاة في أحشاء البدو ، لم تحمل إلا الحروب ، والكوارث من كل نوع »!

أي صورة أمينة هذه... لحكوماتنا العزيزة!

هذه الباحثة ، أبداً ، عن موطئ قدم في مكان ما تعس ، مضطهدة أو مبيدة السكان المحليين متشبثة بما لديها ، مدافعة عن ممتلكاتها ، مستعمراتها ، بالجيش والبحرية . العالم بالنسبة للكبار ، ليس كبيراً بما فيه الكفاية . اما الصغار الذين يريدون ملاذاً ، فلهم الكلمات الورعة والتهديدات المقنعة . الأرض للأقوياء ، لذوي الجيوش والبحرية ، لأولئك الذين يرفعون الهراوة الاقتصادية . أي مسخرة في أن على الشاعر المتوحد الهارب إلى نهاية العالم من أجل تدبير معيشة بائسة... أن يجلس مبسوط الذراعين ، وهو ينظر إلى الدول الكبرى تفسد حديقته .

«نعم ، نهاية العالم... تقدّم ، تقدّم ، دائماً... الآن تبدأ المغامرة الكبرى...» لكنك مهما أسرعت... فستجد الحكومات أمامك ، بالتقييدات ، والقيود ، والسلاسل ، والغازات السامة ، والدبابات ، والقنابل النتنة . لقد أخذ رامبو على عاتقه تعليم اولاد «هرر» وبناتها ، القرآن ، بلغتهم . أما الحكومات فسوف تبيع هؤلاء في سوق النخاسة . كتب مرة يقول «ثمة خراب ضروري» ، ويا للضجة التي قامت حول هذا التصريح البسيط! كان يتحدث آنذاك عن الخراب المؤدي الى الخلق . لكن الحكومات تخرب بدون ادنى عذر ، وبالتأكيد دون أي تفكير بالخلق . لقد أراد رامبو أن يرى الأشكال القديمة تزول ، في الحياة كما في الأدب . أما ما تريده الحكومات فهو الإبقاء على الأمر الواقع ، مهما كلّف هذا الإبقاء من تذبيح وتخريب .

بعض كتاب سيرته ، حين يصفون سلوكه في شبابه ، يجعلون منه ولداً بالغ السوء . الا تدري ؟ لقد فعل أشياء مقرفة... كيت وكيت . لكنهم حين يأتون إلى مدح أفعال حكوماتهم العزيزة ، وبخاصة فيما يتعلق بالمكائد التي وقف رامبو ضدها ، يجعلون من كل شيء عسلاً وبياضاً ناصعاً .

عندما يريدون إغفال صفة المغامر يتحدثون عن الشاعر العظيم الذي كانه . وعندما يريدون إغفال صفة الشاعر يتحدثون عن فوضاه وتمرده .

إنهم يدهشون حين يقلد الشاعر نهّابيهم ومستغِليهم ، ويذعرون لأنه لا يبالي بالمال أو برتابة حياة المواطن العادي المملة .

إنه باعتباره بوهيمياً ، بوهيمي أكثر من اللازم ، وباعتباره شاعراً ، شاعر اكثر مما ينبغي ، وهو رجل أعمال اكثر من اللازم ، وكمهرب بنادق ، حاذق اكثر مما ينبغي... وهكذا إن فعل شيئاً اتقنه... ويبدو أن هذا الأمر أمسى شكوى ضده . من المؤسف انه لم يغدُ سياسياً ، إذن لقام بعمله خير قيام إلى حدّ أن هتلر ، وستالين وموسوليني ، دع عنك شرشل وروزفلت ، سيبدون إزاءه بهلوانات . وأشك في انه كان سيجلب الى العالم الخراب الذي جلبه هؤلاء الزعماء الموقرون . كان سيحفظ بالتأكيد ، شيئاً في كمّه ليوم ماطر . ولم يكن ليطلق صاعقته . لم يكن ليضل السبيل إلى الهدف ، كما فعل زعماؤنا النابهون . ومع كل الخراب الذي الحقه بحياته ، اؤمن بأنه ـ لو مُنح الفرصة ـ كان سيجعل العالم أجمل مكان نعيش فيه . أؤمن بأن الحالم ، مهما بدا غير عملي بالنسبة لرجل الشارع ـ هو اكثر قدرة وكفاءة ، بألف مرة ، ممن نسميهم الساسة .

كان يمكن أن تتحقق بهذه الدرجة أو تلك ، كل المشاريع المذهلة التي أراد رامبو تنفيذها ، والتي عطلت لهذا السبب أو ذاك .

كل ذنبه ، انه فكر بمشاريعه قبل الأوان . لقد رأى أبعد كثيراً من آمال وأحلام الساسة والناس العاديين على حد سواء . كان يعوزه إسناد اولئك الناس الذين يسعدون حين يتهمونه بكونه حالماً ، الناس الذين لا يحلمون إلا في النوم... الذين لم يحلموا أبداً مفتحي العيون . كل شيء يأتي بطيئاً ، متثاقلاً ، بالنسبة للحالم الذي يقف وسط الواقع... كل شيء حتى الخراب .

كتب احد كتاب سيرته «لن يشفي غليله ابداً . تحت نظرته الكليلة تذوي كل الزهور ، وتشحب النجوم» . اجل ، ثمة شيء من الحق في هذا القول . وأنا اعرف الأمر إذ عانيت من المرض نفسه . لكن إن حلم احد

بامبـراطورية ، امبـراطورية الانسـان ، وإن جـرؤ أحـد على التـفكيـر بـخطى الحلزون التي يتقدم بها البشر نحو تحقيق أحلامهم ، فمن المـمكن أن ما نسميه أنشطة الإنسان ، سيعروها الشحوب ، حد التفاهة . لا اعتقد أبداً ، أن الزهور تذوي ، والنجوم تشحب تحت عيني رامبـو . بل أرى ان جـوهره يتصل اتصالاً مبـاشراً متحمساً بالزهور والنجوم . في عـالم الناس ، فقط ، كانت نظرته الكليلة ، ترى الأشـيـاء تذوي وتشحب . لقـد بدأ وهو يريد أن «يرى كل شيء . يحس كل شيء . يستنفد كل شيء . يكتشف كل شيء . يقـول كل شيء » . ولم يمـر وقت طويل حـتى أحس باللجـام في فـمـه ، وبالمهماز على جنبيه ، وبالسـوط على ظهره . ليلبس المرء ، فقط ، ملابس مختلفة عن سواه ، ترى ، أي احتقار وسخرية يتعرض لهمـا . إن القانون الوحيد الذي نحياه حقاً ، نتعلق به ، ونثأر له ، هو قانون الموافقة . فلا عجب إذ انتـهى وهو مـا يزال صبياً إلى أن« يجد اضطراب ذهنه مقدساً » . في هذه النقطة ، جعل من نفسه ، رائياً ، حقاً . لكنه ، من ناحية أخرى ، وجد الناس ينظرون إليه باعتبـاره مـهرجاً وبهلواناً ، وكان امامه اختيـار أن يقاتل طيلة حياته من أجل ان يثبت في المـوقع الذي كسـبه ، أو أن يتخلى عن النضال نهائياً . لِمَ لم يساوم ؟ لأن المساومة لم تكن في قاموسه . كان متعصباً منذ طفـولته ، شـخصاً عليه أن يمـضي إلى نهـاية الطريق ، او يمـوت . وفي هذا يكمن طهره وبراءته .

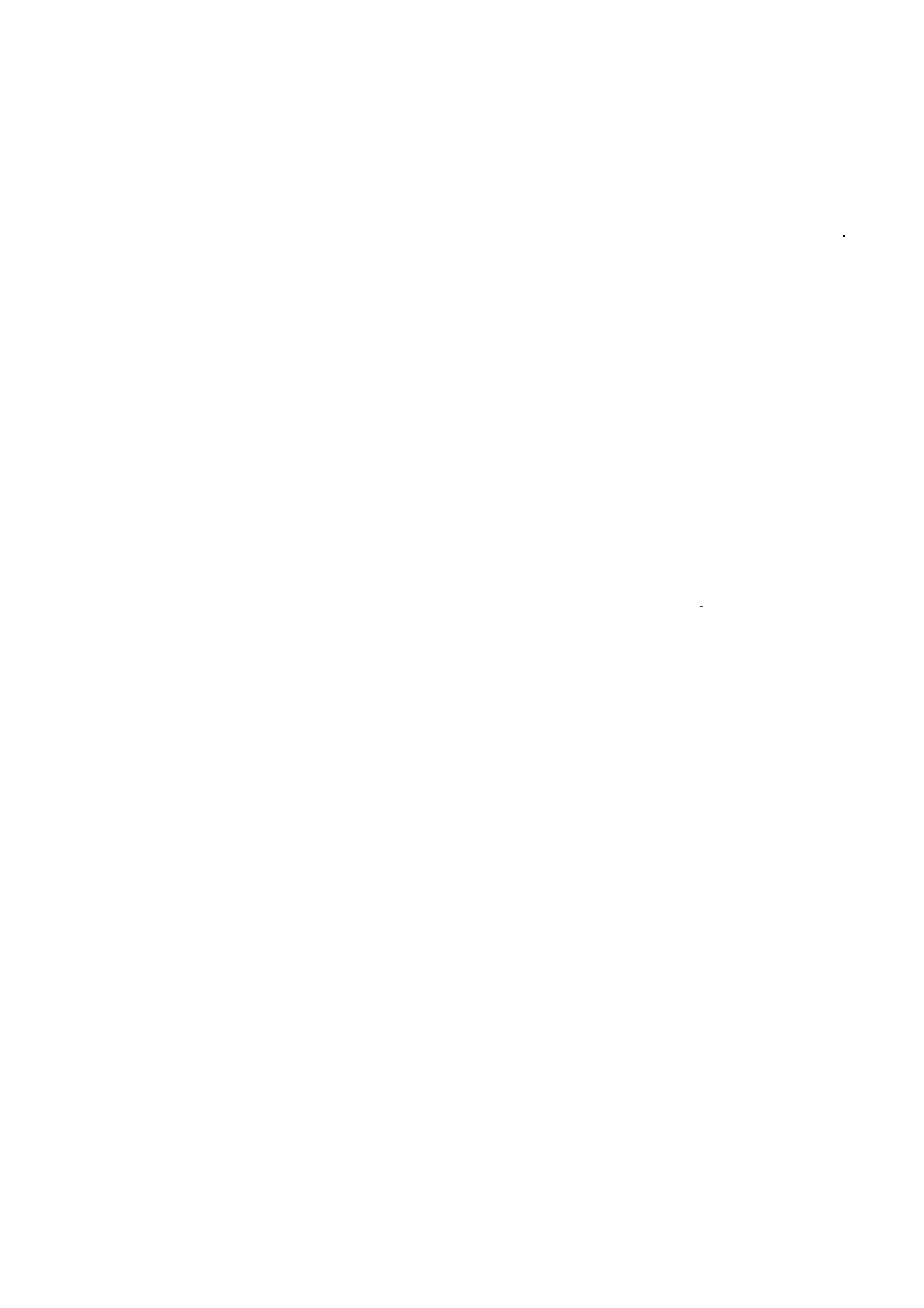
في كل هذا اكتـشـفت ، ثانيـة ، ورطتي الخاصـة . لم اتخل أبداً عن النضـال . لكن... أي ثمن دفـعتـه! كان عليَ أن أشن حـرب عـصـابات ، ذلك النضال اليائس النابع من الاستماتة ، وحسب .

والعمل الذي اعتزمت كتابته ، لم يُكتب بعد ، او كُتب جزئياً . كان عليَ أن أناضل ، كل بوصـة من الطريق ، فـقط من أجل أن ارفع صـوتي ، وأتحدث بطريقتي الخاصة . لقد غدت الأغنية منسية ، أو كادت ، بسـبب

النضال . تحدث عن النظرة الكليلة التي تذوي تحتها الزهور وتشحب النجوم! لقد غدت نظرتي ، حقاً ، أكّالة : وإنها لمعجزة الا تعصف نظرتي التي لا ترحم ، بالزهور والنجوم . أما بالنسبة للظاهر ، فإن الشخص السطحي قد تعلّم ، تدريجاً ، أن يكيف نفسه لطرائق العالم . إنه يستطيع أن يكون فيها ، بدون أن يكون منها . يستطيع أن يكون شفوقاً ، لطيفاً ، محسناً ، كريماً . لم لا ؟ « إن المشكلة الحقيقية » ـ كما أشار رامبو ـ « هي أن تجعل الروح مهولةً » . أي ليست فظيعة ، بل خارقة! ما معنى « مهولة » ؟ حسب القاموس هي « كل شكل منظم من أشكال الحياة ، شُوّه كثيراً ، إما بسبب نقص ، أو زيادة ، أو تبدل موضع ، أو تغير أجزاء أو أعضاء ، وبالتالي ، كل شيء هائل أو شاذ ، أو مكون من أجزاء أو صفات متخالفة ، سواء كان شنيعاً أم لم يكن » .

إن جذر الكلمة Monstrous هو من الفعل اللاتيني Moneo أي : يُحذّر . وفي الميثولوجيا نتعرف على الكلمة في هيئة العنقاء والسعلاة وأبي الهول والقنطور وجنية الغابة وعروس البحر . وكلها كائنات خارقةٌ... وهو المعنى الجوهري للكلمة . لقد قلبت الميثولوجيا ، النموذج ، التوازن . ما مغزى هذا الأمر إن لم يكن خوف الإنسان البسيط! ان الناس البسطاء يرون دائماً كائنات خارقة في طريقهم ، سواء كانت أحصنة طائرة أو هتلريين .

أعظم خوف للإنسان ، هو امتداد الوعي . والجانب المرعب في الميثولوجيا ينبع من هذا الخوف . يتوسل الرجل البسيط : «دعونا نعيش بسلام وانسجام» . لكن قانون الكون يقضي بأن السلام والانسجام لا يأتيان إلا بالصراع الداخلي . والرجل البسيط لا يريد أن يدفع ثمن ذلك النوع من السلام والانسجام ، إنه يريدهما جاهزين ، مثل بدلة جاهزة .



٣

رحلة الطائر الذهبي

هناك كلمات ملازِمةٌ ، متكررة ، يستعملها الكاتب ، أكثرُ قدرةً على الكشف من كل الحقائق التي يكدسها كاتبو السير الصبورون . وإليك القليل مما نجده في شعر رامبو :

«الأبدية ، اللامنتهي ، الإحسان ، الوحدة ، الضيق ، النور ، الفجر ، الشمس ، الحب ، الجمال ، الخفيّ ، الشفقة ، الشيطان ، الملاك ، الثمل ، الفردوس ، الجحيم ، السأم...» .

إنها لحمة مثاله الداخلي وسداه . وهي تنبئنا عن براءته وجوعه وقلقه وتعصبه وعدم تسامحه واستبداده . كان الهه ، بودلير الذي سبر أغوار الشر . لقد أشرت سابقاً ، إشارة جديرة بالإعادة ، وهي أن القرن التاسع عشر بأكمله ، كان معذباً بمسألة الايمان .

في الظاهر ، يبدو كأنه قرنٌ منذورٌ الى التقدم المادي ، قرن مكتشفات ومخترعات مختصة بالعالم الفيزيائي . ولكن في الأعماق ، حيث الفنانون والمفكرون ، نلحظ قلقاً عميقاً واضطراباً . وقد اختزل رامبو الصراع في صفحات قليلة . وكما لو ان هذا لم يكن كافياً ، لذا طبع حياته كلها بالطابع الملغِز الذي يميز المرحلة . انه ، رجل زمنه الأكثر صدقاً مما كان عليه غوته وشيلي وبليك ونيتشه وهيجل وماركس ودوستويفسكي . إنه منقسم من

الرأس الى القدم ، في كل ناحية من كينونته ، يواجه دائماً طريقين . إنه ممزق ، مسحوق بعجلة الزمن . إنه الضحية والجلاّد : حين تنطق باسمه ، يكون لديك الزمان والمكان والحدث . واليوم ، وقد أفلحنا في فلق الذرة... فإن الفضاء مفتوح واسع أمامنا . ها قد وصلنا ، ممسوسين بقوة لم تستطع حتى آلهةُ القديمِ أن تطلقها . إننا ، هناك ، أمام بوابات الجحيم . ترى ، هل سنقتحم الأبواب ، ونفجّر الجحيم نفسه... مفتوحاً ؟ أعتقد أننا سنفعل هذا . أعتقد أن مهمة المستقبل هي اكتشاف مملكة الشر ، حدّ ألا يبقى فيها أي أمرٍ ، سراً . سوف نكتشف الجذور المرة للجمال ، متقبلين الجذر والزهرة ، الورقة والبرعم . لم يعد باستطاعتنا مقاومة الشر : يجب أن نتقبله .

حين كان رامبو نفسه يكتب «كتابه الزنجي» (فصل في الجحيم) ، روي انه أعلن أن «قدري يعتمد على هذا الكتاب!» . كم هو عميق الصدق في هذا التصريح الذي لم يكن رامبو نفسه ليعرف مداه . عندما بدأنا ندرك قدرنا المأساوي ، بدأنا ندرك ما عناه . لقد طابق قدرَه بأخطر المراحل التي عرفها الإنسان . إننا أمام خيارين : إما أن نفعل مثله ، فنرفض كل ما وقفت الحضارة إلى جانبه منذ أمدٍ طويل ، أو أن ندمّر الحضارة بأيدينا نحن .

عندما يكون الشاعر في الحضيض ، يغدو قلب العالم ، رأساً على عقب ، واجباً .

حين لا يعود باستطاعة الشاعر ، التحدث الى المجتمع... وإنما لنفسه ، فقط ، نكون نحن ، إذن ، في الخندق الأخير .

على الجسد الشعري لرامبو أخذنا نبني برجاً لبابل . ولا يعني شيئاً اننا لا يزال لدينا شعراء ، أو أن بعضهم لا يزال مقروءاً ، قادراً على الاتصال بالناس . ما هو اتجاه الشعر ؟ وأين العلاقة بين الشاعر والجمهور ؟ ما هي الرسالة ؟ لنوجه هذا السؤال أولاً :

أترانا نفكر بالجمال مهما كان مُرّاً ، أم نفكر بالطاقة الذرية ؟ وأي

عاطفة قائدةٍ تلهم مكتشفاتنا العظمى ، الآن ؟ الرهبة! إن معرفتنا بلا حكمة ، وراحتنا بلا أمان ، واعتقادنا بلا إيمان . ولا يجد شعر الحياة تعبيره إلا في الصيغ الرياضية والفيزيائية والكيميائية .

الشاعر منبوذ ، شذوذ . هو في طريقه إلى الانطفاء . من يهتم الآن... كيف جعل الشاعر من نفسه مهولاً ؟ إن الوحش طليق ، يطوف العالم . لقد أفلت من المختبر ، وهو في خدمة كل من يجد الشجاعة على استخدامه . العالم أمسى ، حقيقة ، رقماً . إن اخلاقية الوجهين ، مثل كل ذي وجهين ، قد انهارت . وهذه الفترة هي فترة التدفق والخطر المحيق . لقد حلّ الانجراف الكبير .

أما الحمقى فيتحدثون عن الترميمات ، والتدقيقات ، عن الانحيازات والائتلافات ، عن التجارة الحرة والاستقرار الاقتصادي ، والإصلاح . لا أحد يؤمن من الأعماق بأن وضعية العالم يمكن تصحيحها . كل واحد ينتظر الحدث الكبير ، الحدث الوحيد الذي يشغلنا ليل نهار : الحرب القادمة . نحن عبثنا بكل شيء ، فلم يبق بيننا من يعرف كيف . ومن أين يصل إلى التحكم . المكابح لا تزال موجودة ، لكن اتراها ستعمل ؟ نحن نعرف أنها لن تعمل . لقد انطلق المارد . لقد أمسى عصر الكهرباء متخلفاً وراءنا ، كأنه العصر الحجري . عصرنا هو عصر القوة ، القوة الخالصة الصريحة . اليوم... أمامنا : إما الجنة او النار ، ولا وسط بينهما . وكل الدلائل تشير إلى اننا سنختار النار . حين يعيش الشاعر جحيمه ، لا يعود باستطاعة الانسان العادي أن ينجو من الجحيم . هل سميت رامبو مرتداً ؟

نحن ، جميعاً ، مرتدون . لقد كنا نرتدُّ منذ فجر التاريخ . وأخيراً لحق بنا القدر . سيكون لنا «فصل ـ نا ـ في الجحيم»... لكل رجل وامرأة وطفل ذوي علاقة بهذه الحضارة . هذا ما كنا نتوسل حدوثه ، وهو الآن... هنا . ولسوف تبدو «عدن» مكاناً مريحاً .

في زمن رامبو ، كان لا يزال بالإمكان مغادرة «عدن» إلى «هرر» ، لكن بعد خمسين سنة ، من الآن ، ستمسي الأرض ، بأسرها ، فوهة بركان شاسعة . القوة التي بين ايدينا اليوم ـ بالرغم من نفي العلماء ـ هي قوة مشعة ، دائمة التدمير . لم نفكر ، أبداً ، بالقوة ، في صيغة الخير . بل في صيغة الشر ، حسب ، ليس ثمتَ من غامض في طاقات الذرة ، إن الغموض هو في قلوب البشر .لقد جاء اكتشاف الطاقة الذرية متزامناً مع اكتشاف أن احدنا لن يثق بالآخر ، مطلقاً . هنا يكمن الشؤم ـ هذا الخوف المتعدد الرؤوس ، كالهيدرا ، الذي لا تستطيع اي قنبلة أن تدمره . ان المرتد الحقيقي هو الإنسان الذي فقد الثقة ببني جنسه . فقدان الايمان ، شامل ، اليوم . وهنا يكون الربَ نفسه عاجزاً . لقد آمنا بالقنبلة ، والقنبلة هي التي سوف تستجيب لصلواتنا .

***

أي صدمة يعانيها الشاعر ، حين يكتشف أن رامبو قد انكر دعوته! الأمر كما لو قلت إنه انكر الحب . مهما يكن الدافع ، فإن السبب الرئيسي هو فقدان الايمان . إن ذعر الشاعر ، وإحساسه بالتعرض للخيانة والخديعة ، يوازيه رد فعل العالِم حين يكتشف لأي غرض استخدمت اختراعاته . وثمت إغراء بأن يقارن المرء عمل رامبو الإنكاري ، بإطلاق القنبلة الذرية . إن الأرجاع ، مع أنها اوسع في الحالة الأخيرة ، غير أنها ليست اكثر عمقاً . فالقلب يسجل الصدمة قبل أجزاء الجسم الأخرى . والهلاك الأبدي يستغرق وقتاً ، حتى ينتشر خلال جسد الحضارة . ولكن ، حين غادر رامبو ، من الباب الخلفي ، فإن القيامة تكون قد أعلنت عن نفسها .

كم كنت مصيباً حين اجّلت الاكتشاف الحقيقي لرامبو!

إن توصلي إلى نتائج ، حول ظهوره وعلاماته على الأرض ، مختلفة

تمـاماً عن الشعـراء الآخـرين ، نابع من نـفس الروح التي تجـعل القـديسـين يتوصلون إلى استنتاجات حول ظهور المسيح . إما أن تكون مثل هذه الأمور إشارات وعلامات في تاريخ الانسان ، أو أن فن التأويل لا غناء فيه . ليس لدي ادنى شك في أننا سنعيش يوماً مثلما عاش المسيح . وأننا ، جميعاً ، سننكر فردانيتنا... ليس لدي ادنى شك في هذا أيضاً . لقد بلغنا حد الأنانية الأقصى ، الحالة الذرية للكينونة . هناك سنتحطم .

نحن الآن نتهيأ لموت الذات الصغرى ، من اجل أن تطلع الذات الحقيقية .

لقد جعلنا ، بغباء ، وبدون وعي ، العالم واحداً ، لكنه واحد في الإلغاء . علينا أن نمر خلال الموت الجماعي ، كي نخرج افراداً أصيلين . لوكان حقاً أن «الشعر يجب أن يكتبه الجميع» ـ كما قال لوتريامون ، فإن علينا أن نجد لغة جديدة يتحدث فيها القلب الى الآخر بدون توسط . يجب أن يكون نداء أحدنا الآخر ، مباشراً وفورياً ، مثل مناداة رجل الله ، الله . الشاعر ، اليوم ، مرغم على التخلي عن دعوته ، لأنه قد أثبت يأسه ، فهو قد اعترف ، فعلاً ، بعجزه عن الاتصال . يوماً ما ، كانت الدعوة العليا ، أن تكون شاعراً ، أما اليوم فهي أكثر الدعوات عقماً . ليس هذا لأن العالم ممتنع على توسل الشاعر ، ولكن لأن الشاعر نفسه لم يعد يعتقد برسالته الإلهية . لقد ظل يغني ، منذ قرن أو يزيد ، نشازاً ، ولم نعد نستطيع ، أخيراً ، أن «ندوزنه» نحن لا نزال نجد معنى في صرخة القنبلة ، لكن هذيانات الشاعر تبدو لنا رطانة . وإنها لرطانة حقاً ، إن كانت آلاف قليلة فقط ، من مجموع ملياري إنسان ، تتظاهر بأنها تفهم ما يقوله الشاعر الفرد . عبادة الشعر تبلغ نهايتها حين لا توجد إلا لحفنة ثمينة من الرجال والنساء . آنذاك ، لن يعود الشعر فناً ، بل لغة شفرةٍ لجمعية سرية مهمتها الدعوة إلى الفردية الفارغة . الفن أمر يثير عواطف الإنسان ، ويمنحه الرؤية ، والتألق ، والشجاعة ، والإيمان . هل أثار فنانٌ كلماتٍ ، في السنوات الأخيرة ، العالم ، كما فعل هتلر ؟

هل صدمت قصيدةٌ ، العالمَ ، مثلما فعلت القنبلة الذرية ، مؤخراً ؟

إننا لم نر ، منذ ظهور المسيح ، امثال هذه الظواهر التي تزداد امتداداً ، وتتضاعف باستمرار . أية أسلحة يمتلكها الشاعر ، مقارنة بهذه ؟ أو أية أحلام ؟

أين هو الآن خياله المتبجح ؟ الحقيقة ماثلة أمام عيوننا ، عارية تماماً ، لكن اين الأغنية التي تعلنها ؟ هل نرى الآن شاعراً حتى من الدرجة الخامسة ؟ إنني لا أرى أحداً . أنا لا أسمي اولئك الذين ينظمون الكلم ، مقفى أو غير مقفى ، شعراء . الشاعر عندي هو الرجل القادر على تغيير العالم تغييراً عميقاً . ليعلن هذا الشاعر نفسه ، إن كان موجوداً بيننا . ليرفع صوته! لكن عليه أن يكون صوتاً يغطي هدير القنبلة . عليه ان يستعمل لغة تذيب قلوب الناس ، وتجعل الدم يغلي في العروق .

لو أردنا لرسالة الشعر أن تستيقظ ، لكان علينا أن نستيقظ ، منذ زمن طويل . لا يمكن إنكار أن بعضنا استيقظ . لكن على كل البشر أن يستيقظوا ـ فوراً ـ وإلا فنينا . لكن الإنسان لن يفنى تبعاً لذلك . إن ما يفنى هو : ثقافة وحضارة ، وطريقة حياة . وحين يستيقظ هؤلاء الموتى ، كما سيحدث ، يغدو الشعر غذاء الحياة . نستطيع أن نتقبل فقدان الشاعر ، إن كنا سنحافظ على الشعر نفسه . وليس شرطاً توفر الورق والحبر لخلق الشعر ، أو بذره . فالشعوب البدائية ، بأسرها ، شعراء فعل ، شعراء حياة . إنهم ما زالوا يصنعون الشعر ، مع انه لا يهزّنا . ولو كنا منتبهين للشعريّ ، لما كنا بعيدين عن طريقة حياتهم : لأدخلنا شعرهم في شعرنا ، ولغذونا حيواتنا بالجمال المتغلغل في حيواتهم .

لقد كان شعر الإنسان المتحضر ، استثنائياً ، ضيقاً ، على الدوام ، فكتب بنفسه وثيقة موته .

قال رامبو : «يجب أن نكون مطلقي الحداثة» ، يعني بهذا انه قد ولّى

زمان السعالي ، والخرافات ، والأصنام ، والمذاهب ، و«الدوغمات» وكل الثرثرة والتفاهة العزيزتين اللتين تتكون منهما حضارتنا المتبجحة . علينا أن نأتي بالنور ، لا بالإنارة الاصطناعية .

كتب في إحدى رسائله «النقود تهبط قيمتها في مكان» . كان هذا في الثمانينات . واليوم ، في أوروبا ، ليست لها أي قيمة تماماً . ما يريده البشر هو الغذاء والمأوى والكساء ـ الأشياء الأساسية ـ لا النقود . لقد انهار البناء الفاسد أمام عيوننا ، لكننا نرفض أن نصدق عيوننا نفسها . نحن لا نزال نأمل في تدبير الأعمال التجارية كالمعتاد . نحن لم ندرك ، لا الدمار الحاصل ، ولا إمكانات الإنبعاث . نحن نستعمل لغة العصر الحجري القديم . إن لم يستطع البشر الإمساك بفداحة الحاضر ، فكيف يستطيعون التفكير بصيغ المستقبل ؟ كنا نفكر بصيغ الماضي ، لآلاف السنين . والآن ، وبضربة واحدة ، انطمس الماضي الغامض . ليس ثمة سوى المستقبل يحدّق في وجوهنا . إنه يفغر فاه مثل الخليج . ويعترف الجميع ، بأنه لأمر مرعب حتى أن نبدأ التفكير بما يخبئه لنا المستقبل ؟ انه أكثر ارعاباً مما كان عليه في الماضي كله . في الماضي ، كانت الوحوش ذات صفات بشرية ، كان يمكن للمرء أن يصارعها ، إن كان بطلاً بما فيه الكفاية . أما وحش اليوم ، فهو خفي . وفي ذرة غبار واحدة ، البلايين من الوحوش . أنت ترى أنني ما زلت أستعمل لغة العصر الحجري القديم . أتكلم كما لو أن الذرّة هي الوحش ، وكما لو أنها هي التي تمارس القوة ، لا نحن .

تضليل أيضاً ـ أن تدّعي بأن الإنسان بدأ يفكر ، في نقطة ما بعيدة ، من الماضي . الإنسان حتى لم يبدأ يفكر . وهو ـ عقلياً ـ لا يزال على أربع . إنه يتخبط في الضباب : عيناه مغلقتان ، وقلبه يخفق خوفاً . والذي يخافه أكثر ـ فليرحمه اللّه! ـ صورته هو نفسه .

إن كانت ذرّة واحدة تحتوي على هذا القدر من الطاقة ، فماذا عن

الإنسان نفسه الذي يحتوي على أكوان من الذرات ؟ وما دام الانسان يعبد الطاقة ، فلمَ لا ينظر إلى نفسه ؟ إن كان باستطاعته أن يتصور ، ويبرز ، من أجل رضاه ، الطاقة غير المحدودة ، السجينة في الذرة المتناهية في الصغر... فماذا عن «النياغارات» في داخله ؟ وماذا عن طاقة الأرض... والحديث فقط عن كتلة أخرى من المادة متناهية في الصغر ؟ إن كنا نبحث عن شياطين نسرجها ، فثمت عدد لاينتهي منها ، إلى حد يصيب الذهن بالشلل . وإلا... فالأمر من الخطورة بحيث يجعل الناس يهرولون لاهثي الأنفاس ، من باب إلى باب ، ناشرين الهذيان والجلبة .

ربما يستطيع المرء ، الآن فقط ، أن يُقدّر ذلك الوهج ، وهو وهج الشيطان ، حين أطلق قوى الشر . لم يعرف الإنسان التاريخي ، أبداً ، شيئاً عما هو شيطاني بحق . لقد سكن عالم ظلّ ، مليئاً بالأصداء الواهنة ، حسب . إن نقطة الخلاف بين الخير والشر قد حسمت منذ زمن بعيد . الشر يعود إلى عالم الأشباح ، عالم الادّعاء . الموت للسعالي! أجل... لكن السعالي ذبحت منذ زمن طويل . والإنسان قد وُهب نظراً ثانياً كي يبصر ، عبر عالم الأوهام الكابوسي ، ووراءه . والجهد الوحيد المطلوب منه ، هو أن يفتح عيني روحه كي يحدق في قلب الواقع ، لا أن يتخبط في مملكة الوهم والضلال .

***

ثمت مسألة لا بد لي من إثارتها ، متعلقة بتأويل حياة رامبو ، وتخص عنصر القدر . كان نصيبه أن يغدو الشاعر الصادم لعصرنا ، ورمز قوى التمزق الماثلة اليوم . كان قدره ـ كما ظللت أعتقد ـ أن يقع في شراك حياة مليئة بالأحداث سينهيها نهاية غير مجيدة . حين قال رامبو إن قدره يعتمد على «فصل» ، فأظنه كان يعني أن «فصل» سوف يقرر مسار أفعاله

المقبلة . ومن الواضح ، الآن ، أن الأمر قد حدث هكذا ، أكيداً . ولنا أن نعتقد أنه ، بكتابة «فصل» ، قد أسَر لنفسه انه لم تعد به حاجة إلى التعبير على مستوى الفن . باعتباره شاعراً ، قال كل ما يمكن أن يقول . ونظن انه قد أدرك هذا ، فأدار ظهره عن الفن ، عامداً . بعضهم شبه النصف الثاني من حياته بسبات «رب ڤان فينكل» . لكنها ليست المرة الأولى التي ينام فيها فنان عن العالم . لقد فعل پول ڤاليري ، الذي يقفز الى الذهن فوراً ، أمراً كهذا ، حين هجر مملكة الشعر إلى الرياضيات ، لمدة عشرين عاماً أو ما يقاربها . وعادة ، تكون عودة اويقظة . وقد كانت هذه اليقظة لدى رامبو : الموت . إن النور الضئيل الذي انطفأ بوفاته ، قد اكتسب قوة وحدة منذ انتشرت حقيقة موته . ولقد عاش بصورة اكثر روعة وحيوية ، من كل ما فعله في حياته ، بعد ان فارق هذه الأرض . ويتساءل المرء : لو انه عاد إلى هذه الحياة... فأي نوع من الشعر كان سيكتب ، وماذا ستكون رسالته ؟ ويبدو الأمر ، كما لو انه ـ وقد اختُرم في عنفوان رجولته ـ قد خُدع بهذه المرحلة النهائية من النمو التي تسمح للإنسان بأن يجعل أرواحه المتقاتلة تنسجم . كان يعمل معظم حياته ملعوناً ، ويناضل بكل قواه من أجل أن ينفذ الى الآفاق المفتوحة الطليقة لكينونته ، وفي اللحظة الأخيرة ، تماماً حين أحس بالسحب تنجاب ، وجد نفسه مهشماً مشدوداً الى الأرض . إن حمّى نشاطه تنم عن الشعور بحياة قصيرة ، كما هي الحال عند د . هـ . لورنس وآخرين . وإن تساءل أحد عما إذا كان هؤلاء حققوا أنفسهم إلى الحد الأقصى ، فسوف يكون الجواب بالإيجاب . ولكنهم لم يقدر لهم أن يؤدوا الدورة كاملة . وإذا أردنا أن نكون عادلين إزاءهم ، فعلينا أن نأخذ بنظر الاعتبار ، ذلك المستقبل الذي لم يحيوه . قلت عن لورنس ، وأقول أيضاً عن رامبو ، إن أياً منهما ، لو عاش ثلاثين عاماً أخرى ، فلسوف يغني اغنية مختلفة النغم ، تماماً . كانا ، دوماً ، متحدين

مع قدرهما . قدرهما هو الذي خانهما ، وقدرهما هو المستطيع تضليلنا في تفحص أفعالهما ودوافعهما .

كان رامبو ، كما أراه ، انموذجاً متفوق التطور . ولا يزيد التطور الذي مر به في نصف حياته الأول ، إدهاشاً ، على تطور النصف الثاني . وربما كنا نحن ، الذين لا نحس بالمرحلة المجيدة التي كان يتهيأ لدخولها . إنه يهبط أسفل افقنا ،على عتبة تبدّل عظيم آخر ، في بداية دور مثمر كان فيه الشاعر ورجل الفعل على وشك الانصهار معاً . نحن نراه يلفظ النفس الأخير مهزوماً ، وليست لنا القدرة على استكناه ما كانت تخبئه له ، أعوام التجربة الأرضية من مكافأة . نحن نرى نموذجين من الكائن متحدين في إنسان واحد . نحن نرى الصراع ، لكننا لا نرى الانسجام الكامن او القرار . اولئك المهتمون بمغزى حياته ، هم فقط الذين يسمحون لأنفسهم بالعبث بهذه التخمينات ، ومع هذا ، فإن الهدف الوحيد من تناول حياة شخص عظيم ودراستها مقترنة بعمله ، هو إبراز الخفي ، والغامض ، وما لم يكتمل... كما كانت . والحديث عن لورنس الحق ، او رامبو الحق ، هو الاعتراف بحقيقة ان هناك لورنس مجهولاً ، ورامبو مجهولاً . لن يكون هناك خلاف حول هذين الشخصين لو انهما كانا قادرين على الكشف ، تماماً ، عن نفسيهما . ومن الغريب أن نلاحظ بهذا الصدد ، ان الرجال الذين يعالجون الكشوفات ـ كشوفات النفس ـ ، هم بالضبط ، الذين يدور حولهم السر الاعظم . ويبدو أن مثل هؤلاء الأفراد ، قد ولدوا في العالم ، مناضلين من اجل التعبير عن الأعمق سرية في طبيعتهم . وليس موضع شك ، أن هناك سراً يورقهم . ولا يحتاج المرء إلى أن يكون «رائياً» ليدرك الفرق بين مشكلاتهم ، ومشكلات سواهم من الناس البارزين ، وكذلك سبل تناولهم لهذه المشكلات . إن هؤلاء الرجال منحازون ، بعمق ، إلى روح عصرهم ، إلى تلك المشكلات التي تسم زمنهم ، وتمنحه الميزة واللون . إنهم ثنائيون ، دوماً ، لسبب واضح ، ما داموا يجسدون القديم والجديد معاً .

ولهذا السبب ، ينبغي أن يتوفر زمن اكثر ، وتجرد اكثر ، حتى نعرف قدرهم ونقيمهم ، اكثر من معاصريهم مهما كانوا لامعين . إن جذور هؤلاء الرجال ممتدة في ذلك المستقبل بالذات ، المستقبل الذي يؤرقنا . إن لهم إيقاعين ، ووجهين ، وتأويلين . إنهم ممتزجون بالتحول ، بالتدفق . هم حكماء بطريقة جديدة . ولغتهم تبدو بالنسبة لنا ، سرية ، إن لم تكن حمقاء ، أو متناقضة .

يشير رامبو في إحدى قصائده إلى ذلك السر المؤرق الذي نوهت به :

«هيدرا خفية ، بلا أفواه
تُسرُّ وتغمّ» .

كانت بلوى ، تلك التي سممته في سمت كينونته وحضيضها . الشمس والقمر كلاهما كانا ساطعين في داخله ، وكانا كلاهما خسيفين . «كل قمر شرس ، وكل شمس مُرّة» . كان الصميم منه متآكلاً ، وانتشر كالسرطان الذي هاجم ركبته . وتكشف حياته شاعراً ، والتي كانت الفترة القمرية من تطوره ، عن نوعية الخسوف نفسها التي وسمت حياته التالية ، مغامراً ورجل فعل ، وهي التي كانت الفترة الشمسية . في شبابه نجا بأعجوبة من الجنون ، ومرة أخرى نجا من الجنون وهو على فراش الموت . ولو ان الموت لم يخترمه ، لكان الحل الممكن الوحيد له ، الحياة التأملية ، بالطريقة الصوفية . واعتقد أن أعوامه السبعة والثلاثين كانت تهيؤاً لمثل طريقة الحياة هذه .

لماذا أبيح لنفسي الحديث عن هذا الجزء الذي لم يكتمل من حياته ، بمثل هذا اليقين ؟ ذاك لأنني أرى ثانية التناظرات مع حياتي وتطوري أنا . لو كنت مت في العمر الذي مات فيه رامبو... ترى ماذا يمكن أن يعرف عن هدفي وجهودي ؟ لن يُعرف شيء أبداً . ولاعتُبرت نموذجاً في الإخفاق ، ولكان علي ان انتظر حتى عامي الثالث والأربعين حتي يطبع كتابي الأول .

ولكان الأمر بالنسبة لي حادث قدر ، يقارن من كل وجه ، بطبع «فصل» وبقدومه ينتهي الإحباط والفشل . وربما كان سيدرج ، بالنسبة لي أيضاً ، باعتباره «الكتاب الزنجي» . وسيكون الكلمة الأخيرة في اليأس ، والتمرد ، والقذف . انه كذلك ، لذو نبوءة وشفاء ، ليس لقرائي حسب ، وإنما لي أنا أيضاً . وهو يتمتع بتلك الميزة الفنية المنقذة التي تتميز بها غالباً تلك الكتب المتخلصة من الماضي . وقد مكنني من إغلاق الباب على الماضي ، ومن الدخول اليه عبر الباب الخلفي . وسيظل السر المؤرق يتأكلني ، لكنه الآن «السر المفتوح» ، واستطيع تدبير أمري معه .

وما هي طبيعة هذا السر ؟ لا أستطيع أن أقول سوى انه يتعلق بالأمهات . وأشعر ان الأمر هو نفسه لدى لورنس ورامبو . إن كل روح التمرد التي اشاركهما بها نابعة من هذه المشكلة التي تعني ، قدر ما استطيع التعبير ، البحث عن صلة المرء الحقيقية ، بالبشر .

هذه الصلة لا يجدها المرء في الحياة الشخصية ، ولا في الحياة الجماعية ، إن كان الشخص من هذا النمط . المرء غير قادر على التكيف إلى حد الجنون .

الانسان يتطلع الى لقاء نظيره ، لكن المرء محاط بمساحات شاسعة خالية . إنه بحاجة إلى معلم ، لكنه يعوزه التواضع ، والمرونة ، والصبر المطلوب . وهو لا يحس بالطمأنينة حتى مع العظماء في الروح ، حتى مع اعظمهم سمواً ، فهم يعانون من خلل ، ويُشك في امرهم . لكن الإنسان لا يجد قرابته إلا مع هذه النماذج السامية . إنها لمعضلة من الطراز الأول ، ذات اهمية كبرى . على المرء أن يثبت اختلافه التام ، كينونة وفعلاً ، كي يكتشف انتسابه إلى البشر جميعاً ، حتى أدناهم .

القبول هو المفتاح . لكن القبول هو العقبة الكأداء . القبول لا التطابق .

ما الذي يجعل تقبل العالم بالغ الصعوبة لدى هذا النموذج ؟ الحقيقة ،

كما ارى الآن ، ان الشخص في حياته المبكرة ، قد تعرض الجانب المظلم من حياته ، ومن كينونته ، إلى القمع .لقد قمع هذا الجانب إلى حد الطمس . قد يفكر المرء بلا وعي مع نفسه ، أن لو لم يرفض هذا الجانب من الكينونة ، لكان الأمر يعني فقداناً آخر للحرية .

إن الحرية متلازمة والتمايز . الخلاص الآن ، يعني فقط ، الحفاظ على هوية المرء الفريدة في عالم يتجه الى مماثلة كل شخص وكل شيء . هذا هو جذر الخوف . وقد اكد رامبو هذه الحقيقة حين اراد الحرية بالخلاص . لكن الخلاص لا يأتي إلا بعد أن يتخلى المرء عن هذه الحرية الموهومة . إن الحرية التي يطلبها كانت حرية ذاته في تأكيد نفسها بدون قيد . وهذه ليست حرية . بهذا الوهم يستطيع المرء ، لو عاش طويلاً ، ان يستنفد كل جوانب كينونته ، لكنه يظل يجد سبباً للشكوى ، وأرضاً للتمرد . إنه نوع من الحرية التي تضمن للشخص حق الاعتراض ، وحق الانسحاب حين الضرورة . وهي لا تدخل في حسابها ، اختلافات الناس الآخرين... بل اختلاف الشخص وحده . لذا فهي لن تقدم للمرء العون في أن يجد صلته ، ومشاركته ، مع البشرية جمعاء . هكذا يظل المرء منفصلاً ، منعزلاً ، إلى الأبد .

هذا كله يعني ، بالنسبة لي ، معنى وحداً فقط ـ ان الشخص ما يزال مشدوداً إلى الأم . وكل تمرده ، لم يكن سوى غبار في العيون ، المحاولة الفزعة لإخفاء هذا القيد .

الرجال من هذا النمط ، هم ، دائماً ، ضد بلدانهم ـ والمستحيل أن يكونوا غير ذلك . الاسترقاق هو البعبع الكبير ، سواء كان وطناً ، او كنيسة ، او مجتمعاً .

إنهم يمضون حياتهم وهم يكسرون الاغلال ، لكن القيد السري ينهش أعضاءهم الحيوية ، ويحرمهم الراحة . عليهم أن يتوصلوا إلى اتفاق مع الأم

قبل أن يستطيعوا تخليص أنفسهم من هاجس الأغلال . «خارجاً ، خارجاً دوماً! أجلس على عتبة رحم الأم» . أعتقد أن هذه هي كلماتي في «الربيع الأسود» ، في فترة ذهبيةكنت فيها أكاد أمسك بالسر . لا غرابة في أن يغترب المرء عن الأم . إنه لا يراها إلا باعتبارها عقبة . انه يريد راحة رحمها وأمانه ، تلك العتمة والطمأنينة التي تساوي لدى الجنين ، الإشراق والقبول لدى المولود حقاً . المجتمع مكوّن من أبواب مغلقة ، ومحرمات ، وقوانين ، واضطهاد ، وقمع . وليس للمرء سبيل إلى الاشتباك مع تلك العناصر التي تكوّن المجتمع ، والتي من خلالها يجب أن يعمل المرء لو أراد تأسيس مجتمع حقيقي . إنها رقصة أبدية على حافة فوهة البركان . قد ينادى بالشخص متمرداً عظيماً ، لكنه لن يكون محبوباً ، أبداً . وضروري للمتمرد ، قبل الناس كلهم ، أن يعرف الحب ، أن يمنحه حتى أكثر من أن يتلقاه . وأن يكونه ، حتى أكثر من أن يمنحه .

مرة ، كتبت مقالاً بعنوان «الرحم الهائل» صورت فيه العالم نفسه باعتباره رحماً ، ومكاناً للخلق . وكان المقال جهداً شجاعاً وصحيحاً باتجاه القبول . كان بشيراً بقبول أكثر أصالة كان سيأتي قريباً ، قبول حققته بكل كياني . لكن هذا الموقف ، في النظر الى العالم نفسه باعتباره رحماً وخلقاً ، لم يكن بالأمر المسر لدى متمردين آخرين . لقد أبعدني عنهم أكثر ، فحسب . وحين تختلف خطى المتمرد عن المتمرد ، كما هو الشأن دائماً ، فكما لو أن الأرض تغور تحت قدمي المرء . لقد عانى رامبو هذا الاحساس بالهبوط أثناء «الكومونة» . والمتمرد المحترف يجد صعوبة في ابتلاع هذا الموقف . وهو يسميه تسمية أخرى قبيحة : الخيانة . لكن هذه الطبيعة الخائنة بالذات لدى المتمرد ، هي التي تميزه عن القطيع . إنه يخون وينتهك دائماً ، إن لم يكن بالكلمات ، فبالروح . إنه خائن في أعماقه ، لأنه يخشى أن توحده الإنسانية التي في داخله ، بابن جنسه . وهو مُحطِم تماثيل ، لأنه

من فرط تبجيله الصورة ، يغدو خائفاً منها . ما يريده ، قبل كل شيء ، هو انسانيته المشتركة ، قدراته على التقديس والتبجيل . إنه مريض من الوقوف وحيداً ، فهو لا يريد أن يظل إلى الأبد ، سمكة خارج الماء . وهو لا يستطيع العيش مع مثله إلا إذا حظيت هذه المثل بالمشاركة ، لكن كيف يستطيع أن يوصل أفكاره ومثله إن كان لا يتحدث باللغة نفسها التي يتحدث بها ابن جنسه ؟

كيف يستطيع أن يكسبهم إن كان لا يعرف الحب ؟ كيف يستطيع إقناعهم بالبناء ، إن كان يقضي حياته كلها ، بالهدم ؟

على أي أساس ينشأ القلق ؟

«الهيدرا الخفية» تأكل وتأكل ، ليغدو حتى لب المرء والعالم ، مثل خرائب معبد . صرخ رامبو «لا يوهمني شيء... ابداً!» ، لكن حياته كلها لم تكن سوى وهم كبير . وهو لم يكتشف أبداً واقع كينونته ، ولم يتعرف ، عليه . كان الواقع ، القناع الذي جاهد بمخالب وحشية من أجل تمزيقه . كان عطشه لا يروى .

«لا الاساطير ، ولا الشخوص
تشفي غليلي» .

لا شيء يروي ظمأه . كانت الحمى في أعضانه الحيوية ، حيث السر ينهش وينهش . إن روحه لتكشف عن نفسها من أعماق ماء المشيمة ، حيث يترنح ، مثل قارب سكران ، على بحر قصائده ويدور حيثما تغلغل النور . كل رسالة من عالم الروح المتألق تشق صدعاً في جدار القبر . إنه يحيا في ملاذ أسلاف ينهار عندما يواجه ضوء النهار . كان كل ما هو عناصري مأواه . كان العائد إلى الأسلاف والوجه المهجور ، كان الأكثر فرنسية من اي فرنسي... لكن الغريب بينهم .

كان يرفض كل ما انتصب في ضوء المسعى العام . وذاكرته التي تعانق زمن الكاتدرائيات ، والحروب الصليبية ، ذاكرة رِسٍّ . وكأن الولادة قد اخفقت في إفراده .

لقد جاء إلى العالم مجهزاً مثل عربي مقاتل . إن له قواعد سلوك أخرى ، ومبدأ فعل آخر ، ونظرة إلى العالم أخرى . إنه بدائي مسربل بكل نبل السلالة القديمة . وهو متفوق في كل شيء ، ما دام يستر جانبه الناقص . إنه الكائن المتميز ، الكائن الخارق ، وليد اللحم والدم البشريين ، لكن الذي أرضعته الذئاب . إن أي رطانة تحليلية عاجزة عن تفسير «المهول» . نحن نعلم أنه قد أخفق في هذا الأمر ، لكن ماذا علينا أن نفعل لنكون أمينين لكينونته... من يقول ؟ علينا أن نعيد النظر في قوانين الفهم كي نعالج لغزاً كهذا .

الناس في عجلة من أمرهم اليوم ، كي يرغمونا على تبديل وسائل إدراكنا .

وذلك الملتجأ القديم الذي عاش فيه رامبو ، مع سره ، ينهار سريعاً .

في هذا الوضع العام ، سوف يقتلع الشخص ذو المرض الغامض ، من خندقه الفريد .

إن عالم الرجال والنساء ، بأسره ، يُطَوّق ، ويؤتى به أمام قضبان العدالة . ماذا يهم لو ان بعض الأرواح النادرة تظل طليقة ، غير منضبطة ، تستقطر العطر من عذاباتها ؟

اليوم ، نرى الجنس البشري ، بأجمعه ، يستعد لمعاناة محكمة التعذيب الكبرى . وفجأة ، سنرى أنفسنا نسبح ، صدراً لصدر : رجل النبوءة والرجل العادي . إن عالماً جديداً تمام الجدة ، عالماً من الرعب والمنع ، يدق علينا الأبواب .

سوف نستيقظ يوماً ، لنرى مشهداً عصياً على الفهم . لقد ظل الشعراء

والمتنبئون ينذرون بهذا العالم الجديد ، منذ أجيال ، لكننا رفضنا أن نصدقهم .

نحن سكنة النجوم الثوابت رفضنا رسالة كواكب السماء السيارة . لقد نظرنا إليها باعتبارها أجراماً ميتة ، وأشباحاً تائهة ، وباعتبارها ناجية من كوارث منسية منذ زمن بعيد .

كم يشبه الشعراء كواكب السماوات السيارة ؟

ألا يبدو أنهم ـ مثل الكواكب ـ على اتصال بعوالم أخرى ؟

ألا يخبروننا بأشياء مقبلة ، وبأشياء سحيقة ، دفينة في ذاكرة الإنسان الرسية ؟

أي مغزى نستطيع أن نقدمه لبقائهم التائه على الأرض ، سوى أنهم رسل من عالم آخر ؟

نحن نعيش وسط الواقعة الميتة ، بينما يعيشون في الإشارات والرموز . إن أشواقهم لا تصادف أشواقنا إلا حين نقترب نحن من حضيض مدار الكوكب السيار . هم يحاولون قطع حبال مراسينا ، هم يحثوننا على التحليق معهم بأجنحة الروح . إنهم ينذروننا ، دوماً ، بمجيء أشياء مقبلة ، ونحن نصلبهم ، لأننا نعيش في رعب من المجهول .

في الشاعر ، تتخفى ينابيع الفعل .

إن نموذجاً أعلى تطوراً من باقي الأنواع ـ وأنا ، هنا ، أقصد بـ «الشاعر» كل اولئك الذين يسكنون في الروح والمخيلة ـ لم يمنح إلا فترة الحمل نفسها ، مثل سائر الناس . وعليه أن يتم هذه الفترة بعد الولادة .

العالم الذي يسكنه ليس مثل عالمنا ؛ إنه يشبه عالمنا ، بقدر ما يقال عن عالمنا إنه يشبه إنسان كرو ـ ماغنون . إن ادراكه الأشياء يشبه إدراك إنسان من عالم الأبعاد الأربعة يعيش في عالم ذي ثلاثة أبعاد . إنه في عالمنا ، لكنه ليس منه . فهو ينتمي إلى مكان آخر . رسالته أن يغوينا ، أن

يجعل هذا العالم الذي يحدنا ، لا يحتمل . والوحيدون الذين يستطيعون الاستجابة للدعوة ، هم اولئك الذين عاشوا في عالمهم ذي الابعاد الثلاثة ، واستنفدوا إمكاناته .

إن الإشارات والرموز التي يستخدمها الشاعر هي اوثق البراهين على أن اللغة وسائل تعامل مع العصي والملغز .

ما ان تصبح الرموز قابلة للإيصال على كل مستوى ، حتى تفقد صحتها وفاعليتها . وطلبك من الشاعر أن يتحدث بلغة رجل الشارع ، يماثل انتظارك من النبي أن يوضح نبوءاته . إن ما يبلغنا من ممالك سامقة ، بعيدة ، يأتي مسربلاً بالسر والغموض . أما ما يذاع ، ويوضح باستمرار ، من خلال الشرح ـ أي العالم المفهومي باختصار ـ فهو في الوقت نفسه مضغوط ، مشدود ، من خلال استعمال الكتابة الاختزالية للرموز . نحن لن نستطيع الشرح إلا في صيغ أحجيات جديدة . إن ما يرجع إلى مملكة الروح ، أو الأبدي ، يتحاشى كل شرح . إن لغة الشاعر مقاربة ، وهي تسير موازية للصوت الداخلي عندما يقترب هذا الصوت من لاتناهي الروح .

من خلال هذا السجل الداخلي ، يتصل من ليست له لغة ، بالشاعر . والمسألة هنا ليست مسألة تربية لفظية ، وإنما التطور الروحي .

ولا يبرز نقاء رامبو بصورة اشد وضوحاً ، منه في هذا الموقع غير المتزحزح ، الذي اتخذه على امتداد شعره . شعر رامبو يفهمه أناس شديدو التنوع ، ويسيء فهمه أناس شديدو التنوع . ويمكننا أن نعرف مقلديه على الفور . ليس ثمة ما يشترك به مع الرمزيين . وليس ثمة ما يشترك به مع السرياليين ، قدر ما أرى . إنه والد مدارس عديدة ، لكنه ليس أباً لأي واحدة . استخدامه الفريد للرمز ، هو علامة عبقريته . لقد توصل إلى منظومة الرمز هذه عبر الدم والألم .

وكان هذا ، احتجاجاً ، والتفافاً في الوقت نفسه ، على انتشار المعرفة

المقبض ، الذي هدد بخنق نبع الروح . كما كان أيضاً نافذة مفتوحة على عالم علائق أشد تعقيداً ، عجزت اللغة القديمة عن تناوله . وخلافاً لشعرائنا المتأخرين ، لم يستخدم الرموز التي استعملها الرياضي والعلماء . لغته لغة الروح ، لا لغة الأوزان ، والمقاييس ، والعلائق التجريدية . في هذا فقط أظهر أي (حديث) مطلق ، كان .

أريد هنا أن أشدد على نقطة سبق لي تلمسها ، أعني أمر الاتصال بين الشاعر والجمهور . كنت أعني بإطرائي استخدام رامبو الرمز ، التأكيد على أن التوجه الحقيقي للشاعر ، يكمن في هذا السبيل . وفي رأيي أن هناك اختلافاً كبيراً ، بين استخدام كتابة أكثر رمزية ، واستخدام مصطلحات جد شخصية سميتها (رطانة) . يبدو أن الشاعر الحديث يدير ظهره لجمهوره ، كما لو أنه يحتقره .

يتشبه الشاعر في الدفاع عن نفسه بالرياضي أو الفيزيائي ، مستخدماً اليوم ، لغة إشارية تماماً ، لا يستطيع أن يفهمها أغلب المتعلمين ، لغة سرية لا يفهمها الا أهل عبادته .

والظاهر أنه قد نسي أن له وظيفة أخرى مختلفة تماماً عن هؤلاء الناس الذين يتعاملون مع العالم الفيزيائي أو المجرد . اداته الروح ، وعلاقته بالرجال والنساء علاقة حيوية . لغته ليست للمختبر ، وإنما لخلوة القلب . وحين يتخلى عن قوة تحريكنا ، تغدو أداته بلا قيمة . موضع التجدد هو القلب ، وهناك يجب أن يرسو الشاعر . لكن العالم ، من الناحية الأخرى ، مهتم نهائياً ،بعالم الوهم ، العالم الفيزيائي ، حيث ينبغي للأشياء أن تحدث . العالم ، هو الآن فعلاً ، ضحية القوة التي أراد يوماً استغلالها .

إن يومه لمنتهٍ . أما الشاعر فلن يكون في هذا الموقف . ولن يكون شاعراً ، أولاً ، إن كانت غريزته للحياة ، منحرفة ، كغريزة الحياة لدى العالِم . لكن الخطر الذي يهدده هو إبطال قواه ؛ إنه بخيانته الثقة الموضوعة

فيه ، يسلم مصائر بشر لا يحصون ، إلى تحكم أفراد من هذه الدنيا ، همهم الوحيد ، عظمتهم الشخصية . يعتبر تنازل رامبو عيّنة أخرى ، من التصفية الذاتية للشاعر المعاصر . فقد رفض رامبو أن يكون غير ما كان ، في مركزه باعتباره شاعراً ، من أجل البقاء . شعراؤنا غيورون على الإسم ، لكنهم لا يظهرون أي نزوع لتقبل مسؤولية مركزهم . إنهم لم يثبتوا أنفسهم شعراء ، وهم قانعون بأن يسموا أنفسهم شعراء . إنهم لا يكتبون لعالم يتعلق بكل كلمة منهم ، وإنما لعالم آخر . وهم يبررون عجزهم ، بجعل أنفسهم غير مفهومين ، عمداً . إنهم سجناء ذواتهم الصغيرة الممجدة ، واضعين أنفسهم بمنأى عن العالم ، خوفاً من أن يتهشموا عند اول اتصال . وهم ليسوا حتى شخصيين ، عندما ندقق الأمر ، فلو كانوا كذلك لفهمنا عذابهم وهذيانهم ، كما هو . لقد جعلوا أنفسهم مجردين ، شأن مسائل الفيزيائي . إن شعرهم تطلع إلى عالم من الشعر الصافي ، ينخفض فيه جهد التوصيل إلى الصفر .

عندما أفكر بأولئك الارواح العِظام الذين عاصروا رامبو ـ رجال مثل نيتشه ، وسترندبرغ ، ودستويفسكي ـ عندما أفكر بالألم الذي عانوه ، العذاب الذي لم يعان عبقريونا مثله ، أبدأ التفكير بأن النصف الأخير من القرن التاسع عشر كان أكثر فترة حلت عليها اللعنة في التاريخ . من بين عصبة الشهداء هذه ، المفعمين جميعاً بشارات المستقبل ، نجد أن فان غوخ هو الأقرب ، مأساة ، إلى رامبو . ولد بعد رامبو بعام ، لكنه مات بيده هو في السن نفسها . مثل رامبو ، كان صلب الإرادة ، خارق الشجاعة ، استثنائي الطاقة والدأب ، هذه الصفات كلها مكنته من النضال ضد ما لا يقهر . لكنه ، شأن رامبو ، أضناه النضال ، وهو ، بعدُ ، في عنفوان حياته......فسقط ، وهو في ذروة قواه .

التشرد ، تبدل المهن ، التقلبات ، الإحباطات ، والمهانات ، وغيوم

الجـهل التي أحـاطت بـهـمـا......كل هذه الوقـائع التي كـانت مشـتـركـة في حياتهما ،جعلتهما ينتصبان أمامنا مثل توأمين منكودين .

إن حياتهما من بين أشد الحيوات التي سجلت في العصر الحديث ، حزناً .

لا أحد يستطيع قراءة رسائل فان غوخ دون أن ينهار ، مرة إثر مرة .

والإختلاف الكبير بينهما على أية حال ، هو ما تلهمه حياة فان غوخ من حقيقة .

بعد موت فان غوخ بقليل ، كتب الدكتور غاشيه ، الذي فهم مريضه فهماً عميقاً ، كتب إلى ثيو ، شقيق فنست ما يأتي :« كلمة حب الفن ليست دقيقة ، على المرء أن يسميها إيماناً ، وهو إيمان سقط فنسنت شهيده! » هذا هو العنصر الذي يبدو انه كان مفقوداً تماماً ، لدى رامبو ـ الإيمان ، سواء بالله ، أو الانسان أو الفن . هذا الغياب هو الذي جعل حياته تبدو رمادية ، وكالحة السواد أحياناً . إلا أن تشابهات المزاج بين الرجلين عديدة وصارخة . إن الرابطة العظمى بينهما هي طهارة فنهما . ومقياس هذه الطهارة ، يُقدم بصيغ المعاناة . لم يعد مثل هذا العذاب ممكناً في نهاية القرن . نحن ندخل مناخاً جديداً ، ليس أفضل بالضرورة ، لكنه مناخ أمسى فيه الفنان أكثر يأساً ، ولا مبالاة . وكل من يمارس معاناة قريبة من ذلك العذاب ، ويسجلها ، يدمغ بأنه « رومانتيكي لا أمل في شفائه » . لم يعد منتظراً أن يشعر المرء ، بهذه الطريقة .

في تموز ١٨٨٠ كتب فان غوخ إلى شقيقه واحدة من تلك الرسائل التي تغوص إلى قلب الأشياء ، رسالة تستثير الدم . وحين نقرؤها نتذكر رامبو .

غالباً ما يكون في رسائلهما تطابق صارخ في التعبير . ولا يتحد الاثنان أبداً ، مثل اتحادهما عندما يدافعان عن نفسيهما إزاء الاتهامات الباطلة . في هذه الرسالة يدافع فان غوخ عن نفسه ، ضد ما رمي به من عطالة . وهو يصف ، بالتفصيل ، نوعين من العطالة : النوع الطالح ، والنوع الصالح .

والرسالة موعظة حقيقية حول الموضوع ، تستحق العودة إليها مراراً وتكراراً . في موضع من هذه الرسالة نسمع صدى كلمات رامبو ذاتها...... «هكذا ، ينبغي ألا تعتقد بأنني اتنصل من الأشياء . إنني ، بالحري ، مؤمن بعدم إيماني ، ومع هذا التبدل ، إلا أنني الشخص نفسه ، وهمي الوحيد هو : كيف اكون نافعاً في العالم ، ألا أستطيع أن اكون في خدمة هدف ، وأن اؤدي أي نفع ، كيف اتعلم أكثر ، وادرس ، بعمق ، مواضيع معينة ؟ أنت ترى ، أن هذا هو ما يشغلني باستمرار ، ثم احس بنفسي سجين الفاقة ، مبعداً عن المشاركة في عمل معين... وثمة أشياء ضرورية لا أستطيع بلوغها . إنه أحد الأسباب التي لا تتركني بلا كآبة ، ثم ان المرء ليحس بالخواء حيث ينبغي أن تكون صداقة ، وحنان قوي جاد ، ويشعر بتثبيط رهيب ينهش حتى طاقته المعنوية ، ويبدو أن القدر يضع حاجزاً أمام غرائز الحنان ، ويتعالى طوفان من الغثيان ليخنق المرء ، حتى ليهتف : «إلى متى... يا الهي ؟» .

ثم يمضي إلى التمييز بين الإنسان العاطل بسبب الكسل ، بسبب انعدام الشخصية ، بسبب حطة الطبع ، والنوع الآخر من الإنسان العاطل ، وهو العاطل بالرغم من نفسه ، المتحرق في داخله إلى العمل ، والذي لا يفعل شيئاً لأن من المستحيل عليه أن يفعل أي شيء... وهكذا . إنه يرسم صورة الطائر في القفص المذهب . ثم يضيف هذه الكلمات المؤثرة المنذرة : «وغالباً ما تمنع الظروف الناس من عمل الأشياء ، إني سجين قفص لا أدري كم هو فظيع فظيع فظيع . وهناك أيضاً ، وأنا اعرف الأمر ، إطلاق السراح ، إطلاق السراح المتأخر . السمعة السيئة حقاً أو باطلاً ، البؤس ، الظروف المميتة ، العداء ، كل هذه تسجننا ، بل تدفننا ، لكن المرء يحس ، من ناحية ثانية ، بحواجز معينة ، وبوابات معينة ، وجدران معينة .

أكل هذا خيال وفانتازيا ؟ لا أظن ذلك . ثم يتساءل المرء : «إلهي ،

ايظل هذا طويلاً أبدياً ، خـالداً ؟ ، أتدري مـا الذي يحـرر الإنسـان من السجن ؟ إنه كل حنان جاد عميق . أن نكون أصدقاء ، أشقاء ، أن نحب بعضنا ، هذا الذي يفتح السجن بقوة عليا ، قوة سحرية . لكن بدون هذه القوة ، يظل السجن باقياً . حيثما تجدد العطف استعيدت الحياة» . أي موازاة بين وجود رامبو منفياً وسط أهل الحبشة ، والتجاء فان غوخ الطوعي إلى مرضى مستشفى الأمراض العقلية!

ومع هذا ، ففي هذه الأماكن الشاذة ، وجد الرجلان الطمأنينة والرضا النسبيين .

يقول انيد ستاركي «لثماني سنوات ، ظل صديق رامبو الوحيد وأنيسه ، الصبي جامي من هرر ، البالغ من العمر أربع عشرة سنة أو خمس عشرة... كان جامي من الأشخاص القلائل في حياته ، الذين ظل يتذكرهم ويتحدث عنهم بحنان ، والصديق الوحيد الذي تكلم معه على فراش الموت ، ذلك الوقت الذي ينصرف فيه تفكير أناس آخرين إلى اولئك الذين عرفوهم في فتوتهم» . أما بالنسبة لفان غوخ ، فقد كان رولان موزع البريد ، هو الذي وقف إلى جانبه في أحلك الساعات . ولم يتحقق ، البتة ، تطلعه إلى من يستطيع العيش والعمل معه . وكانت تجربته مع غوغان فاشلة ، بل قاتله . وحين وجد ، في النهاية ، الدكتور كَاشيه في «اوفر» كان الوقت جد متأخر . كان نسغه المعنوي قد نضب . «الدرس الوحيد الواجب أن نتعلمه في هذه الحياة ، هو أن نعاني بدون أن نشكو» .

هذا هو الاستنتاج الذي استخلصه فان غوخ من تجربته المُرَة . وفي حالة الاستسلام السامي هذه ، انتهت حياته ، لقد رحل فان غوخ في تموز ١٨٩٠ ، بعد عام من كتابة رامبو لأهله :

«وداعاً ايها الزواج ، وداعاً ايتها الأسرة ، وداعاً ايها المستقبل . لقد انتهت حياتي . لست أكثر من شلو هامد» .

لم يتحرق رجلان إلى الحرية والانطلاق ، مثل هذين الروحين السجينين .

يبدو أن الاثنين قد اختارا ، عامدين أشق سبيل لنفسيهما . ولكليهما امتلأ كأس المرارة حتى الاندفاق . وفيهما كان جرح لم يندمل ، البتة . كشف فان غوخ في رسالة كتبها قبل موته بثماني سنوات عن خيبته الثانية الكبرى في الحب ، وما سببت له . « كلمة واحدة أشعرتني بأن شيئاً لم يتغير في داخلي ، عنه ، وانه كان وسيبقى جرحاً ، احمله معي ، لكنه جرح عميق لن يندمل ، سيظل حتى بعد سنوات ، مثلما كان في اليوم الأول » . لقد حدث لرامبو امر مماثل ، أيضاً ، لكننا وإن كنا لا نعرف شيئاً تقريباً ، عن تلك المسألة المحزنة ، غير أن من الصعب ألا نعتقد بأن تأثيرها كان مدمراً ، بصورة مماثلة .

يشترك الإثنان في خاصية جديرة هي الأخرى بالانتباه ـ البساطة المتناهية في متطلباتهما اليومية . كانا زاهدين زهد القديسين . هناك من يظن أن رامبو عاش فقيراً لأنه كان بائساً . لكنه حين جمع ثروة لابأس بها ، كان مستعداً للتخلي عنها لدى اول دعوة . كتب إلى أمه من « هرر » عام ١٨٨١ ، يقول : « إن كنت في حاجة ، فخذي مني ما تشائين : الأمر لك . أما بالنسبة لي ، فليس هناك شخص افكر به ، سوى شخصي ، أنا ، الذي لا يطلب شيئاً » .

حين نفكر بأن هذين الرجلين ، اللذين كان عملهما نبع إلهام دائم للأجيال اللاحقة ، قد أرغما على العمل كالعبيد ، وعانيا الصعاب في تأمين عيشهما ، الذي لم يكن اكثر من متطلبات كادح بسيط... فكيف ننظر إلى المجتمع الذي بزغا فيه ؟ اليس واضحاً أن مجتمعاً كهذا يهيء اسباب انهياره السريع ؟ يقارن رامبو في إحدى رسائله من « هرر » ، اهل الحبشة بالبيض المتحضرين ، قائلاً : «ليس أهل « هرر » أكثر مكراً وسفالة من الزنوج البيض في البلدان المسماة متحضرة ، الطريقة فقط ليست نفسها . بل هم

أقل خبثاً ، ويمكنهم في حالات معينة إظهار معرفة وإخلاص أكثر . إن المرء يكون إنسانياً بينهم » . ومثل فان غوخ كان يشعر انه في بيته مع المنبوذين والمسحوقين ، اكثر من اهل وسطه . اتخذ رامبو امرأة حبشية لإرضاء عاطفته ، بينما كان فان غوخ زوجاً لامرأة منكودة (وأباً لطفلها) ، امرأة دونه في كل شيء ، امرأة جعلت حياته لا تطاق . لقد أُنكرت عليهما ، حتى في الحب الجسدي ، امتيازات الرجال العاديين . وكلما طلبا من الحياة ، الأقل ، نالا الأقل . عاشا كالغربان الجائعة وسط الغنى الوفير لعالمنا الثقافي . لكن لم يستطع رجلان ، في زمنهما ، كما استطاعا ان يبلغا إحساسهما بالحرية إلى حد المأثرة . ففي سنوات قليلة ، التهما ، بل تمثلا ، التراث المكدس منذ آلاف السنين . لقد واجهتهما المجاعة فيما كان يبدو وفرة . لقد آن الأوان للتخلي عن الروح . كانت أوربا تتهيأ ، فعلاً ، لتحطيم القالب الذي أخذ يكتمل مثل تابوت .

إن السنوات التي تلت موتهما تعود إلى ذلك الجانب المظلم من الحياة الذي كانا يناضلان من اجل التنفس ، في ظله ، كل ما هو بربري ، وزائف ، وزائلٌ ، يظهر إلى السطح بقوة الانفجار . بدأنا ، أخيراً ، ندرك كم هو غير حديث ، هذا العصر «الحديث» . لقد عملنا بكل طاقتنا على قتل الأرواح الحديثة حقاً . إن لغتهم تبدو لنا رومانتيكية فعلاً . فهم يتكلمون بلغة الروح . نحن ، اليوم ، نتكلم بلغة ميتة ، كل بلغة مختلفة عن الآخر . لقد انتهى الاتصال . وليس علينا سوى ان ننقل الجثة .

***

«من المحتمل أن اغادر إلى زنجبار الشهر المقبل» .

هكذا كتب رامبو في إحدى رسائله .

وفي رسالة أخرى ، كان يفكر بالذهاب إلى الصين أو الهند . وبين حين

وآخر يستفسر عن قناة (بنما ؟) . إنه سيسافر إلى أقصى العالم لو كان هناك أمل بتدبير معيشة . ولم يخطر بباله أن يعود إلى وطنه ، ويبدأ الحياة من جديد . كان المكان الغريب ، فقط ، هو الذي يستثير ذهنه .

أي وتر أليف يضرب عليه! كم حلمت في أيامي الأولى بالسفر إلى تمبكتو! وإن كان هذا مستحيلاً ، فالسفر إلى ألاسكا وجزر بولينيزيا . وقفت ، مرة ، مدهوشاً ، في متحف تروكاديرو ، وأنا أحدق طويلاً الى وجوه سكان جزر كارولين . وحين كنت ادرس قسماتهم الجميلة ، تذكرت أن أقارب بعيدين لنا كانوا استقروا هناك . لو استطعت الذهاب إلى هناك... لشعرت ، أخيراً أنني «في بيتي» . أما الشرق ، فكان دائم الإلحاح علي... وهو إلحاح لازمني منذ الطفولة . الشرق... ليس الصين والهند وحدهما ، بل جاوة وبالي وبورما ونيبال والتيبت أيضاً . ولم يخطر ببالي مرة أنني سأواجه متاعب في تلك البلاد البعيدة . كنت أتخيل أنني سأستقبل بأذرع مفتوحة . لكن العودة إلى نيويورك ، من ناحية أخرى ، كانت فكرة مخيفة . فالمدينة التي اعرف كل شارع فيها ، معرفتي لكتاب ، وحيث اصدقائي الكثار ، ظلت آخر مكان على وجه الأرض أود العودة إليه . إنني أفضل الموت على قضاء بقية أيامي ، مرغماً ، في مسقط رأسي . ولا أتخيل نفسي وأنا عائد الى نيويورك ، إلا معطوباً تماماً ، مشلولاً ، فاقداً الروح .

يا للهفة التي قرأت بها رسائل رامبو الأولى!

كان بدأ ، للتو ، تطوافه . كان يهيم ، متنقلاً ، بين المشاهد التي رآها ، طبيعة الأرض ، والتوافه التي قرأها ذووه دوماً فرحين مستثارين .

كان متأكداً من أنه سيجد عملاً في المكان الذي سيقصده ، واثقاً من نفسه... كل شيء سيكون على خير ما يرام . إنه فتي ، مفعم بالآمال الكبيرة ، وثمة الكثير مما يرى في هذا العالم العظيم . لكن لم يمض وقت طويل على هذه النبرة ، كي تتبدل .

فبالرغم من كل الحيوية والحماسة اللتين ابداهما ، بالرغم من كل رغبته في العمل ، بالرغم من كل ما يملك ، موهبة ، وعبقرية ، ودأباً ، وتكيفاً... اكتشف ، بدون مرور وقت طويل ، ان ليس ثمة مكان لشخص مثله... أنى ذهب . العالم لا يريد الأصالة . يريد المطابقة... العبيد... والعبيد... والعبيد . المجاري مكان العبقري ، حيث يحفر التنوات... مكانه مقالع الحجر ، حيث لا تستخدم مواهبه . إن اكثر المناظر حزناً في العالم ، منظر عبقري يبحث عن عمل . فهو غير ملائم في أي مكان... ولا أحد يريده . يقول العالم : إنه عاجز عن التكيف . وبهذا تصفق الأبواب ، شديدة ، في وجهه . إذن... أليس له من مكان إطلاقاً ؟ بلى... ان له مكاناً ، دوماً ، في الحضيض الأسفل . ألم تره في الموانئ يحمل غرارات القهوة ، والبضائع الأخرى «الضرورية» ؟ ألم تلاحظ بأي إتقان يغسل الصحون في مطبخ مطعم قذر ؟ ألم تره حمال حقائب في محطة القطار ؟

ولدت في نيويورك ، حيث فرص النجاح وفيرة كما يتخيل العالم .

ليس صعباً علي أن أتصور نفسي واقفاً ، في الصف ، عند وكالات التشغيل ، ومكاتب الإحسان . وظهر آنذاك أنني قادر على عمل وحيد ، هو غسل الصحون . وحتى في هذا ، كنت ، دائماً ، متأخراً جداً . فهناك آلاف الرجال المستعدين ، دوماً ، لغسل الصحون .وغالباً ما كنت أتنازل عن مكاني لرجل بائس يبدو أسوأ حالاً مني ، آلاف المرات . لكني ، من الناحية الأخرى ، كنت أستدين ، أحياناً ، ثمن اجرة السيارة ، او وجبة الطعام ، من احد المتقدمين إلى العمل ، الواقفين في الطابور ، ثم أنسى كل ما يتعلق بالبحث عن عمل . وإن رأيت إعلاناً عن عمل ما أفضله ، في مدينة مجاورة ، فإني اذهب إلى هناك أولاً... حتى لو كان الأمر يعني قضاء يومي كله ، من اجل الوصول إلى تلك المدينة . عدة مرات ، قطعت ألف ميل ، أو اكثر ، بحثاً عن عمل تعس... نادل مطعم... مثلاً . وغالباً ما تحثني فكرة المغامرة

على المضي بعيداً . قد التقط محادثة عابرة مع شخص في الطريق ، تبدل مجرى حياتي كلها . قد «أبيع» نفسي له ، فقط لأنني في غاية اليأس . هكذا أحاول أن أبين لنفسي معقولية ما أفعله . أحياناً يعرض علي العمل الذي ذهبت أبحث عنه ، لكنني ـ عارفاً في دخائلي أنني لن اتمسك به ـ اترك الأمر ، وأعود أدراجي إلى البيت ، جائعاً دوماً . في كل ارتحالاتي وأوباتي كنت جائعاً .

هذا هو الأمر الثاني المرتبط بالعبقري ـ الطوى . أولاً ، هو غير مرغوب فيه ، وثانياً... لا طعام له . وإلى جانب هذا الضيق الذي يعانيه ، نراه يعيش ، كما يعرف الجميع ، حياة «رايلي» . فهو كسول ، قليل التدبير ، غير مستقر ، مخادع ، كذاب ، لص ، متشرد ، وهو يسبب السخط أينما حل . إنه شخص لا يطاق ، حقاً . من يستطيع مجاراته ؟ لا أحد ، حتى نفسه .

لِم التأكيد على الأمور القبيحة المشاكسة ؟

إن حياة العبقري ليست كلها قذارة وبؤساً .

كل امرئ له متاعبه ، سواء كان عبقرياً أم لا . أجل... هذا صحيح أيضاً . ولا يقدّر أحد هذه الحقيقة أكثر من العبقري . بين الحين والآخر ترى العبقري يتقدم بخطة لإنقاذ العالم ، أو وسيلة لتجديده ، في الأقل . ولا تقابل هذه إلا بالهزء ، باعتبارها أحلاماً وحشية ، وطوباوية . «عيد ميلاد على الارض!» مثلاً . أي حلم من أحلام الكوكايين! دعه يعوم بحره أولاً . كيف له أن ينقذ الآخرين إن كان عاجزاً عن إنقاذ نفسه ؟ الجواب الكلاسيكي ، جواب لا يدحض . لكن العبقري لن يتعلم ، البتة . فلقد ولد مع حلم الفردوس ، ومهما كان هذا الحلم مخبولاً ، فإنه سيناضل من أجل تحقيق هذا الحلم ، مرة إثر مرة . إنه غير قابل للإصلاح ، نزاع إلى الانتكاس ، بكل معنى الكلمة . إنه يفهم الماضي ، ويعانق المستقبل ، لكن الحاضر لا يعني شيئاً له . والنجاح لا يغريه . والمكافآت يرفضها ، وكل الفرص . وهو

ساخط . لا يفيدك شيئاً حتى لو تقبلت عمله . فهو مشغول بعمل آخر ؛ لقد تحول توجهه ، واستدارت حماسته إلى ناحية اخرى . ما الذي أنت فاعل له ؟ كيف تسترضيه ؟ لن تستطيع شيئاً . فهو بعيد عن متناولك . إنه يسعى وراء المستحيل .

أظن هذه الصورة غير المحببة للعبقري ، دقيقة حقاً . وربما وصفت هذه الصورة حالة الشخص غير الاعتيادي حتى في المجتمعات البدائية ، مع بعض الاختلافات الضرورية . فللبدائيين أيضاً شواذهم ، ومرضاهم العصبيون ، والمصابون بالأمراض النفسية . لكننا نصر ، بالرغم من هذا كله ، على الاعتقاد بأن هذه الحالة ينبغي أن تزول ، وأن يوماً سيأتي يجد فيه هذا النموذج من الفرد مكاناً له في العالم ، بل سيكون محاطاً بالتقدير والتبجيل . قد يكون هذا أيضاً حلماً من احلام الكوكايين . ربما كانت الرعاية ، والانسجام والسلام والمشاركة انواعاً من السراب ستظل تخدعنا ، إلى الأبد . ومع هذا ، فإن حقيقة كوننا نحن الذين خلقنا هذه المفاهيم ، وان لهذه المفاهيم المعنى الأعمق عندنا ، هذه الحقيقة تعني أن المفاهيم تلك قابلة للتحقيق . ربما خلقتها الحاجة ، لكنها ستكون حقائق بالرغبة . يعيش العبقري عادة وكأن هذه الأحلام ممكنة التنفيذ . إنه محمل فوق طاقته بفعاليتها ، بحيث لا يستطيع استنفادها ، وحده ، وهو بهذا المعنى ، ينتسب إلى أولئك الرافضين العظام ، الذين يرفضون «النرڤانا» حتى يستطيع البشر جميعاً تحقيقها مع أنفسهم .

«الطيور الذهبية المتنقلة خلال قصائده الظليلة!» من اين أتت طيور رامبو الذهبية ؟ وإلى اين تطير ؟ إنها ليست حمائم ولا جوارح . إنها تسكن الأنواء . رسلاً تحضنها الظلمة ، وتنطلق في نور الإشراق . وهي لا تشبه مخلوقات الهواء ، ولا هي بالملائكة . إنها الطيور النادرة للروح ، الطيور العابرة المتنقلة من شمس إلى شمس . وهي ليست سجينة

القصائد... وإنما هي حرة ، متحررة ، فيها ، تحلق عالياً بأجنحة النشوة ، وتتلاشى في اللهيب .

لكأن الشاعر ، وهو في النشوة ، طائر بهي مجهول ، غارق في رماد الفكر . فإن أفلح في تحرير نفسه ، فإنه سيحلق إلى الشمس في طيران التضحية . وليست أحلامه بعالم متجدد سوى أصداء ضربات نبضه المحمومة . يتخيل أن العالم سيتبعه ، لكنه في الزرقة ، يرى نفسه وحيداً . وحيداً ، لكن محاطاً بإبداعاته... معززاً بها ، للقاء التضحية العظمى . لقد تحقق المستحيل : تم حوار المبدع والمبدع . ومن الآن ستنتشر الأغنية ، واهبة كل القلوب الدفء ، متغلغلة في كل العقول . في السطح ، يحتضر العالم . وفي القلب يتقد مثل جمرة حية . في قلب الشموس العظيم للكون ، تجتمع الطيور الذهبية . ثمة فجر أبدي ، سلام أبدي ، انسجام ومشاركة .

إن الإنسان لا ينظر سُدىً إلى الشمس ، فهو يطلب النور والدفء لا للجسد الذي سيفنى يوماً ، وإنما لكينونته الداخلية . رغبته الكبرى أن يحترق بالنشوة ، وأن يذيب لهبه الصغير بنار الكون المركزية . وإن وهب أجنحة الملائكة لتأتيه برسالات السلام ، والانسجام ، والألق من عوالم بعيدة ، فلسبب واحد ، هو أن يغذي أحلامه في الطيران ، وأن يعزز اعتقاده هو بأنه سيبلغ ما هو أبعد من نفسه ، على اجنحة ذهبية . الإبداع ند الإبداع الآخر . لكن الإبداعات كلها واحدة في الجوهر . ان اخوّة البشر لا تتكون من التفكير المتشابه ، ولا الفعل المتماثل ، وإنما في إلهام الإبداع . وإن اغنية الإبداع لتنبع من حطام التشوف الأرضي . الإنسان الخارجي يموت ، كي يكشف عن الطير الذهبي الذي يشق سبيله ، محلقاً ، نحو الألوهية .

٤

متى لا تعود الملائكة تشبه أنفسها؟

هناك ، في « فصل في الجحيم » مقطع (عنوانه« المستحيل ») يبدو أنه يشكل مفتاحاً لطبيعة المأساة الكاسحة التي تصفها حياة رامبو . وبما انه عمله الاخير ـ في سن الثامنة عشرة! ـ لذا يتمتع بأهمية معينة . هنا تنقسم حياته الى قسمين متساويين ، او تكمل نفسها ، اذا اردنا النظر الى الامر بطريقة اخرى . لقد نجح رامبو ، مثل إبليس ، في ان يجعل نفسه يُطرد من السماء ، سماء الشباب . لم يهزمه ملاك ، لكن هزمته أمه ، التي تمثل بالنسبة له ، السلطة . وهو قدر استسلم له منذ البداية . فالشاب اللامع ، الممتلك كل المواهب ، والمحتقرها ، يكسر حياته ، فجأة ، في اثنتين . إنه عمل مفزع ورائع معاً . والشيطان نفسه لم يكن قادراً على تدبير عقوبة أكثر قسوة مما فعله رامبو لنفسه ، وهو في كبريائه وأنانيته اللتين لا تقهران . لقد تنازل ، وهو على عتبة الرجولة تماماً ، عن كنزه (العبقري او المبدع) الى « تلك الغريزة السرية ، وقوة الموت فينا » ، كما وصفها « أمييل » جيداً . هكذا شوهت « الهيدرا الخفية » صورة الحب الى حد لم يعد فيه بيّناً ، في النهاية ، سوى التحدي والعجز . لقد غاص رامبو ، بعد ان هجر كل امل في استعادة مفتاح براءته المفقودة ، في البئر السوداء التي تصل فيها الروح الانسانية الى الحضيض ، حيث نردد كلمات « كريشنا » :

بنفسي هذه أوسس الكون اجمعه ، واظل ، الى الأبد ، منفصلاً .

المقطع الذي يكشف عن ادراكه الموضوع واختياره ، الذي حصل بقوة الضرورة ، هو الآتي :

« إن ظلت روحي ، منذ هذه اللحظة ، يقظة ، فإننا سنصل سريعاً الى الحقيقة ، التي قد تكون محيطة بنا الان ، بملائكتها ، المنتحبة!... لو انها كانت مستيقظة حتى الآن ، لما استسلمت للغرائز المنحطة ، منذ عهد منسي! لو انها كانت ، مستيقظة ، دوماً ، لأبحرت بكامل الحكمة!... »

ما الذي حجب رؤيته ، مسبباً هلاكه ، لا أحد يعلم ـ وقد لا يعلم أحد ابداً . لقد ظلت حياته ، مع كل الوقائع التي بين ايدينا ، سراً ، شأنها شأن عبقريته . إن ما نراه بكل وضوح ، هو ان كل ما تنبأ به لنفسه في السنوات الثلاث التي منحته الإشراق... قد تحقق في سنوات التطواف ، حين جعل من نفسه صحراء . كم وردت في كتاباته كلمات مثل : الصحراء ، السأم ، الغضب ، الكدح!

في النصف الثاني من حياته ، اكتسبت هذه الكلمات ملموسية فظيعة ، لقد أمسى هو كل شيء توقعه ، كل شيء خافه ، كل شيء ثار عليه . ولم يؤد به الى نتيجة ، نضاله من أجل تحرير نفسه من الأغلال التي صنعها البشر ، ومن اجل السمو على شرائع البشر ، ومعتقداتهم ، وقواعدهم ، وخرافاتهم . أمسى عبد أهوائه ونزواته ، ولعبة لا يهمها سوى أن تخط بالطباشير ، جرائم تافهة أخرى ، الى حسابه ، في لوح لعنته .

وعلينا ألا ننظر بشك الى حقيقة انه لم يستسلم إلا بعد أن غدا « شلواً هامداً » كما عبّر هو . كان رامبو المتمرد مجسداً . وتطلب الأمر كل انحطاط وإذلال ، كل شكل من أشكال التمزق ، لكسر الإرادة العنيدة المنحرفة أساساً . كان منحرفاً ، مارقاً ، صلباً ـ حتى الساعة الأخيرة...

حتى لم يعد ثمة أمل .

كان من أكثر الأرواح التي تنبت على الأرض ، استماتة .

حقاً ، لقد استسلم من الانهاك ـ ولكن ليس قبل أن يرود كل سبيل خطأ .

وفي النهاية ، حين لم يعد أمامه ما يعزز كبرياءه ، حين لم يعد بمواجهته الا فكّا الموت ، حين كان منبوذاً الا من شقيقته التي أحبته... آنذاك لم يبق في وسعه الا ان يصرخ طالباً الرحمة . لقد هزمت روحه ، ولم يبق الا ان تستسلم . كان قد كتب منذ امد طويل «أنا آخر» . واليوم وجدت مشكلة «جعل الروح مهولة» حلها . لقد تنازلت الروح الأخرى التي كانت «أنا» : عرفت عهداً قاسياً مديداً ، وقاومت كل حصار ، فقط من أجل أن تنحل ، أخيراً ، إلى اللاشيء .

في بداياته كان ينادي «أقول... يجب أن تكون رائياً... كن رائياً!» . وفجأةً ، ينتهي الأمر ، ولا تعود به حاجة الى الأدب ، حتى الى أدبه هو . ثم تأتي الهجرة الصعبة ، والصحراء ، وعبء الذنب ، والضجر ، والغضب ، والكدح ، والإذلال ، والوحدة ، والألم ، والاحباط ، والهزيمة ، والاستسلام . ومن مهمه عواطفه المتصارعة ، من ساحة المعركة التي هي جسده ، تفتحت في الساعة الاخيرة زهرة الإيمان . ترى كم كانت بهجة الملائكة! لم توجد ، البتة ، روح أكثر عناداً ، من هذا الأمير المتكبر آرثر! علينا ألا نستهين بأن الشاعر الذي تباهى بأنه ورث وثنيته وحب التدنيس من أسلافه ، الغاليّين ، كان يعرف في المدرسة بـ «المتدين الصغير القذر» ، وهو لقب كان يتباهى به . «التباهي» دوماً . سواء كان قاطع الطريق في داخله أو المتعصب ، الهارب من الجيش أو النخّاس ، الملاك أو الشيطان... فانه كان دائماً يسجل الأمر ، متباهياً . لكن القسيس الذي جاء ، في النهاية ، ليأخذ الاعتراف ، هو الذي يمكّننا القول انه غادر متباهياً . روي أنه قال لشقيقته إيزابيل : «أخوك لديه إيمان ، يا طفلتي... لديه ايمان ، أما انا فلم احمل ايماناً كهذا» .

انه إيمـان اكثر الارواح يأساً ، المتعطشة الى الحياة ، انه ايمـان الساعة الاخيرة ، اللحظة الاخيرة ـ لكنه إيمـان . مـاذا يهم ، إذن ، كم قاوم... وكيف كانت مقاومته شديدة ، وعاصفة ؟ لم يكن واهن الروح . كـان جباراً . قاتل حتى آخر قدر من قوته . ولهذا سيظـل اسمـه ، مثل ابليس ، اسمـاً مجيداً ، يدعيه هذا وذاك . حتى أعداؤه يدّعونه : ونحن نعلم كيف صادر الألمان النصب المقام له في مسقط رأسه « شارلفيل » ونقلوه معهم ، في الحرب الاخيرة .

كم تبـدو مأثورة ، ونبـوية ، الكلمـات التي قذفها بوجه صديقه دلاهاي حين أشـار الأخيـر الى تفـوق الألمـان الفـاتحين . « البلهـاء! خلف أبواقـهم الزاعقة ، وطبولهم الداوية ، سيعودون الى بلدهم ليأكلوا السجق ، معتقدين ان الامر قد انـتهى . لكن انتظر قليلاً . انهم الآن مُعَسكرون من قمـة الرأس حتى أخمص القدم ، وسيظلون ، لوقت طويـل ، يبلعون نفـايات المجد تحت أسيادهم المخادعين والجنون الذي سوف يسجن المجتمع الألماني بأسره ، لا لغرض الا أن يُسحق ، في النهاية باتئلاف ما! » .

أجل قد يدعيه الطرفان ، بالتسـاوي . وأكرر : إن هذا لمجدُه . اي انه يعـانق الظلمـة والنور . وان العـالم الذي غـادره ، هو عـالم المـوتى الأحيـاء ، العـالم المزيف للثقـافة والحضارة . لقد نفض عن روحـه كل الزخـارف التي يتـحلى بهـا الإنسـان الحـديث . « يجب أن نـكون مطلقي الحـداثة! » ، « الإطلاق » مهم . وبعد جمل قليلة ، يضيف رامبو : « معركة الروح وحشية كمعركة الرجال ، لكن رؤيا العدالة هي بهجة اللّه وحده » .

ورطتنا اننا نمـارس حداثة زائفة . وليس فينا صراع حاد ووحشي ، ولا معركة بطولية كالتي شنّها قديسو المـاضي . كان القديسون رجالاً أقوياء ، والنسـاك فنانين... ولم يعودوا طراز اليوم... مع الاسف . فقط الرجل العـارف معنى الغواية يتحدث هكذا . فقط الرجل العارف قيمة المبدأ ، المبدأ الباحث عن السمو بالحياة الى مستوى الفن ، يمجد المقدسين هذا التمجيد .

يمكن القول ، بمعنى من المعاني ، إن حياة رامبو كلها ، كانت بحثاً عن المبدأ الصحيح ، المبدأ الذي يستطيع أن يمنحه الحرية ، اكيداً . ويتضح هذا تماماً ، في البداية ، باعتباره مجدداً ، مع ان المرء قد يخالف نوع المبدأ الذي فرضه على نفسه .

وفي النصف الثاني من حياته ، عندما هجر المجتمع ، غدا هدف مبدئه الإسبارطي اكثر غموضاً . أمن اجل النجاح الأرضي ، حسب ، تحمل كل تلك المصاعب والحرمانات ؟ ظاهرياً ، يبدو أن ليس له هدف آخر ، أكثر من اي مغامر طموح . هذا هو رأي الشكاكين ، والفاشلين الذين يودون لو كان رفيقهم شخصية عظيمة مثل رامبو الملغز . أما أنا ، فيبدو لي انه كان يستعد لرحلة مثل رحلة درب الآلام . ومع انه قد لا يكون فهم المسألة بنفسه ، إلا أن تصرفه يماثل تصرف القديس الذي يصارع طبيعته المتوحشة . ولربما كان يهيء نفسه ، أعمى ، لتقبل العفو الإلهي الذي ازدراه ، بكل حمق وجهل ، في شبابه . وربما أمكن القول إنه كان يحفر قبره بيديه . لكنه لم يكن ، أبداً ، القبر الذي أراده ـ كان يحس برعب هائل من الديدان .

بالنسبة له ، كان الموت تام الوضوح ، على الطريقة الفرنسية . لنتذكر كلماته المرعبة : «أن ترفع غطاء التابوت بقبضة يابسة ، أن تجلس ، أن تختنق . هكذا ، لا شيخوخة ، البتة ، ولا أخطار ؛ الإرهاب ليس فرنسياً» . خوف هذا الموت الحي هو الذي جعله يختار الحياة الصعبة ، كان عازماً على أن يتحدى الرعب ، ولا يستسلم في منتصف الطريق . إذن ، ما غاية هذه الحياة الشاقة ، وهدفها ؟ ثمة ، بالطبع ، اكتشاف كل وجه ممكن من الحياة . كان يرى العالم «مليئاً بالأماكن الرائعة التي لا يمكن أن تُزار طيلة حيوات آلاف الرجال» . كان يريد عالماً «تعمل فيه الطاقة الهائلة طليقة» . لقد أراد أن ينهك قواه ، حتى يحقق نفسه تماماً . وعلى طموحه ، أن يبلغ ،

بأية حال ، حتى لو كان مستنزفاً كل الاستنزاف ، حدود عالم مدهش ، عالم لا يمت بصلة إلى العالم الذي عرفه .

أي عالم يمكن أن يكون هذا ، غير العالم المتألق للروح ؟ ألا تعبر الروح عن نفسها بهيئة الشباب ؟ من الحبشة ، كتب يائساً ، إلى أمه ، مرة يقول : «نحن نعيش ونموت بطريقة أخرى لم نخطط لها أبداً ، ويتم ذلك بلا أي جزاء . ونحن محظوظون لأن هذه هي الحياة الوحيدة التي علينا أن نعيشها ، ولأن الأمر واضح...» لم يكن دائماً بهذا التأكد من ان هذه الحياة هي الوحيدة . ألم يتساءل في فصله في الجحيم ، عن وجود حيوات اخرى ؟ إنه يشك بوجودها . وكان هذا بعض عذابه . وأغامر بالقول ان لا احد يعرف أفضل من الشاعر الشاب أن لكل حياة مخفقة أو مستنفدة ، حياة اخرى ، وأخرى... بلا انتهاء ، بلا أمل ـ حتى يرى المرء النور ، ويختار العيش به . اجل ، إن معركة الروح حادة وحشية كقتال الحرب . القديسون يعرفونها ، لكن الرجل الحديث يهزأ بها . إن الجحيم موجود حيثما اعتقد المرء ، وكيفما اعتقد . إن اعتقدت أنك في الجحيم ، فأنت فيها . ولقد غدت الحياة ، للرجل الحديث ، جحيماً أبدياً ، لسبب بسيط هو فقدانه أي أمل ببلوغ الجنة . إنه لا يؤمن حتى بجنة من خلقه هو . وهو ، بعمليات تفكيره ، يحكم على نفسه بـ ـ الجحيم الفرويدي العميق... إشباع الرغبة .

«رسالة الرائي» الشهيرة ، التي كتبها رامبو في سن السابعة عشرة ، الوثيقة التي أثارت من الأصداء اكثر من كل كتابات الأعلام... في هذه الرسالة التي تضم وصايا إلى الشعراء الآتين ، يؤكد رامبو أن اتباع المبدأ يستلزم «عذاباً اليماً يحتاج (الشاعر) فيه ، إلى كل قوته ، كل قوته الخارقة» . ويضيف أن الشاعر في اتباعه هذا المبدأ ، سوف ينتصب باعتباره «العاجز العظيم ، المجرم العظيم ، اللعين العظيم ـ والعارف الأعلى! ـ لأنه يبلغ المجهول!» وضمانة هذه المكافأة الكبرى ، هي في الحقيقة البسيطة ، ان

«الشاعر قد تعهد روحه ، بصورة أغنى من الآخرين» . لكن ، ماذا يحدث حين يبلغ الشاعر المجهول ؟ يقول رامبو : «ينتهي بفقدان كل فهم لرؤاه» . ويضيف ، وكأنه يتوقع مثل هذا القدر : «لكنه ، قد رآها ، ألم يرها ؟ دعه ينفجر بوجيبه ـ بالأشياء التي لم يسمع بها أحد ، ولم يسمها أحد ، والتي قد رآها ، ثم ليأت آخرون مخيفون ، من بعده ، وسيبدأون عند الآفاق التي تلاشى فيها» .

هذا النداء ذو التأثير الكبير فيمن سيأتون ، جدير بالانتباه لأسباب عديدة لكن الرئيسي فيه أنه يكشف عن الدور الأصيل للشاعر ، والطبيعة الحقيقية للموروث . ما نفع الشاعر إن لم يصل إلى رؤيا جديدة للحياة ؟ إن لم يكن مستعداً للتضحية بحياته شاهداً على حقيقة رؤياه وبهائها ؟ الطريقة السائدة اليوم هي الحديث عن هذه الكائنات الشيطانية ، هؤلاء الرؤيويين ، باعتبارهم رومانتيكيين ، والتأكيد على ذاتيتهم ، والنظر اليهم ، كانقطاعات وتوقفات ، وفجوات ، في نهر الموروث العظيم ، وكأنهم مجانين يدورون في دوامة الذات . لا شيء يجافي الحق أكثر من هذا الكلام . فهؤلاء المجددون ، على وجه التحديد ، هم الذين يشكلون حلقات السلسلة العظيمة للأدب الخلاّق . وعلى المرء أن يبدأ ، حقاً ، عند الآفاق التي تلاشوا فيها . «أمسك بالمكسب» ، كما عبر رامبو ، ولا تجلس مرتاحاً في الحطام ، لتشكل أحجية من تجميع اللقى .

قيل إن ورع رامبو في الثانية عشرة كان من القوة بحيث انه كان يتشوف إلى الاستشهاد . لكنه بعد ثلاث سنوات ، وفي «شمس وجسد» يهتف : «بالجسد ، بالرخام ، بالزهرة ، بفينوس ، أؤمن!» ويتحدث عن افروديت تلقي على الكون «حباً لا منتهياً في ابتسامة لا منتهية» . ويقول إن العالم سيجيب ، سيهتز «مثل قيثارة هائلة في ارتعاشة قبلة هائلة» . إننا نراه هنا يعود إلى براءة الوثنية ، إلى ذلك العهد الذهبي المفقود ، أيام كانت

الحياة «حفلة تتفتح فيها كل القلوب ، وتتدفق فيها كل الأنبذة» . إنها فترة الاتصال بالنفس ، فترة التشوف الخارق إلى المجهول إنها ـ باختصار ـ فترة حضانة ، قصيرة لكنها عميقة ، مثل نعيم السامادهي (Samadahi كلمة هندية تعني في الفكر الديني الهندي حالة غياب تام عن هذا العالم ، واتصال بعالم آخر جميل ـ المترجم) .

ثلاث سنوات اخرى تمر ، وفي الثامنة عشرة ، فقط ، نجده في نهاية حرفته الشعرية ، يكتب وصيته الأخيرة ، وعهده . الجحيم التي يصفها بحيوية مفعمة ، كان قد مارسها ، فعلاً ، بروحه ؛ وعليه الآن أن يعيشها بجسده . أي كلمات تأسر القلب في المقطع المسمى «صباح» من شاب في الثامنة عشرة! لقد ولى شبابه... وولى معه كل شباب العالم . وطنه مهيض مهزوم . امه لا تريد سوى التخلص منه ، من هذا المخلوق الغريب الذي لا يطاق . لقد عرف الجوع ، والتشرد ، والإذلال ، والرفض ، عرف السجن ، وشهد «الكومونة» الدامية وربما شارك فيها... مارس الرذيلة والانحطاط ، فَقَد حبه الأول ، وقطع علاقته بزملائه الفنانين ، مسح ميدان الفن الحديث ووجده فارغاً ، وهو الآن على اهبة إعطاء كل شيء ، حتى نفسه ، إلى الشيطان . هكذا ، سيسأل عن شبابه الضائع ، كما فعل وهو على فراش الموت ، حين قال : «ألم يكن لي مرة شباب لطيف ، بطولي ، خرافي . إلى حد أن اكتب على اوراق الذهب : حظاً عميماً! ترى أية جريمة ، أي ذنب ، اورثني وهني الراهن ؟ أنت الذي جعلت بعض الحيوان ينتحب آسفاً ، وجعلت المريض ييأس ، والموتى يحلمون أحلاماً سيئة ، جرب أن تحكي قصة سقوطي وهجوعي . فأنا نفسي ، لا استطيع أن أصف نفسي اكثر مما يفعل الشحاذ بترداده «أبانا» و«ليكن سلام لك يا مريم» . لم أعد أعرف كيف أتكلم .

لقد اتم حكاية جحيمه الخاص... ويوشك أن يقول : وداعاً . لم يبق إلا

أن يضيف بضع كلمات فراق . وثانية تأتي صورة الصحراء ـ إحدى الصور الأكثر إلحاحاً . لقد نضب نبع إلهامه : واستنفد ـ مثل ابليس ، النور الذي مُنحه . ولم يبق إلا نداء الماوراء ، نداء الأعماق ، واستجابة لهذا النداء ، يجد العزاء والإكمال في حياة الصورة المروعة التي تسكنه : الصحراء . «متى نرحل ؟» هكذا يتساءل «متى نرحل... لنحيي ولادة المهمة الجديدة ، الحكمة الجديدة ، هروب الطغاة والعفاريت ، نهاية الخرافة ؛ لنعشق ـ الأشياء الأولى! ـ عيد ميلاد على الأرض ؟» (كم تذكر هذه الكلمات بمعاصره الذي لم يعرفه ، البتة ـ نيتشه) .

أي ثوري عبر عن طريق الواجب ، بهذا الوضوح ، وهذه الحدة ؟ وأي قديس استخدم عيد الميلاد بمعنى اكثر الوهية ؟ إنها كلمات متمرد ، أجل ، لكنه ليس بالمتمرد العاق . إنه وثني ، لكنه وثني مثل «ڤرجيل» ها هوذا صوت النبي ورجل المهمات ، الحواري والمبادر معاً . حتى القسيس ، يجب أن يشترك في عيد الميلاد هذا ، بالرغم من كونه صنمياً ، متشبثاً بالخرافة . «أيها الأرقاء... دعونا لا نلعن الحياة»! هكذا يصرخ . نهاية للبكاء والعويل ، نهاية لموت الجسد ، نهاية للطاعة والاستسلام ، للمعتقدات الطفولية والصلوات الطفولية . لتمض الأصنام الزائفة ، وعصي العلم . يسقط الدكتاتوريون ، والديماغوجيون ، وذوو الغماغم . دعونا لا نلعن الحياة ، لنعبد الحياة! كانت الفترة المسيحية كلها إنكاراً للحياة ، إنكاراً لله ، إنكاراً للروح . والحرية لم نحلم بها حتى الآن . حرروا العقل ، والقلب ، والجسد! حرروا النفس... كي يحل الأمان! ها هوذا شتاء الحياة و«أنا لا أثق بالشتاء ، لأنه فصل الراحة! أعطنا عيد ميلاد على الأرض ، لا المسيحية . لم أكن مسيحياً ، البتة . لم أنتسب إلى جنسكم . اجل ، إن عيني مغمضتان عن نوركم . إنني وحش ، زنجي ، لكن يمكنني أن أنال الخلاص! وأنتم الزنوج المزيفون ، ايها التافهون ، المسعورون ، الخبثاء . انا الزنجي الحقيقي ،

وكتابي هذا هو كتاب زنجي . اقول ، ليكن لنا عيد ميلاد على الأرض... الآن... الآن ، أتسمعونني ؟

وكأنه يقول متحسراً «أحياناً ، ارى في السماء شواطئ لا تنتهي تغطيها أمم بيضاء فرحة .» وللحظة ، لا يقف شيء بينه وبين يقين الحلم . ويرى المستقبل ، التحقق الحتمي لرغبة الإنسان العميقة . لا شيء قادر على منعه من المجيء ، حتى الزنوج المزيفون الذين يفسدون العالم باسم القانون والنظام . لقد حلم بكل شي ، حتى النهاية . كل الذكريات الفظيعة ، التي لا تذكر تتلاشى . ومعها تتلاشى الندامات . ما زال امامه أن يأخذ بثأره ، من المتخلفين ، «أصدقاء الموت» . بالرغم من انني ذاهب إلى المتاهة ، وأنني قد جعلت من حياتي صحراء ، وأن أحداً لن يسمع باسمي منذ الآن... فليعلم أي واحد منكم ، فليعلم كلكم أنني سيسمح لي بامتلاك الحقيقة في الجسد والروح . لقد فعلتم أقصى ما تستطيعون لإخفاء الحقيقة ، حاولتم أن تدمروا روحي ، وفي النهاية ستهشمون جسدي على خشبة التعذيب... لكني سوف اعرف الحقيقة ، وامتلكها لي ، في هذا الجسد ، وهذه الروح...

هذا ما ينطقه المتطلع «صديق الله» بالرغم من إنكاره اسمه .

يقول رامبو «ما دامت كل لغة ، فكرة ، فلسوف يأتي يوم اللغة الكونية... هذه اللغة ، الجديدة ، او الكونية ، ستتحدث من النفس الى النفس ، جامعة كل الروائح ، والأصوات ، والألوان ، رابطة كل فكر .» ولا حاجة إلى القول إن مفتاح هذه اللغة هو الرمز ، الذي لا يمتلكه إلا المبدع . إنها ألف باء النفس ، اصيلة ، محصنة . وبوساطتها ، يتصل الشاعر ـ سيد المخيلة ، وحاكم العالم المعترف به ـ بأخيه الإنسان ، ويشاركه . من اجل تأسيس هذا الجسر ، منح رامبو الشاب نفسه ، للتجريب . ويا للنجاح الذي حققه ، بالرغم من الاستنكار المفاجئ الغامض! إنه ما يزال ، من وراء القبر ، يتصل ، بقوة تتعاظم مع السنين . وكلما بدا أكثر إلغازاً ، صفا مبدأ .

تناقض ؟ أبداً . إن كل ما هو نبوي ، لا يتضح إلا في الزمان والحدث . بهذه الأداة ، يمكن للمرء أن ينظر أماماً ووراء ، بالوضوح نفسه ، ويغدو الاتصال فن تأسيس رابطة منطقية ومنسجمة ، في أي وقت ، بين الماضي والمستقبل . وكل ما هو مادي يصبح ميسوراً ، إذا تحول إلى عملة أبدية ـ لغة النفس . في هذه المملكة لا يوجد أميون ، ولا نحاة . ضروري فقط ، أن تفتح القلب ، وترمي بعيداً المفاهيم الأدبية المسبقة ، وبتعبير آخر ، أن تقف مكشوفاً . إن هذا ، بالطبع ، معادل للهداية... إجراء جذري يستلزم حالة من الاستماتة . لكن ، إن اخفقت كل الوسائل الأخرى ، كما يحدث حتماً ، فلم لا تكون هذه الوسيلة ـ في الهداية ؟ الخلاص لا يبدو عند بوابات الجحيم . لقد اخفق البشر ، في كل امر . وكان عليهم... دوماً ، أن يتأثروا خطاهم ، ويعيدوا تحمل العبء الثقيل ، ويبدأوا ، من جديد الصعود الحاد الى القمة . لم لا يتقبلون تحدي الروح ويذعنون ؟ لِم لا يستسلمون ، ليدخلوا في حياة جديدة . الرجل القديم ينتظر دائماً . بعضهم يسميه «الملقن» وبعضهم يسميه «التضحية العظمى» .

إن ما أخفق مقلدو رامبو ومنتقصوه ، في رؤيته ، هو انه كان يدعو إلى ممارسة طريقة حياة جديدة . ولم يكن يحاول تأسيس مدرسة جديدة في الفن ، من اجل ان يحوّل ناظمي الكلمات الضعفاء ـ كان يشير إلى توحيد الفن والحياة ، واصلاً الانشقاق ، شافياً الجرح المميت . المحبة السماوية ، هي مفتاح المعرفة . لقد كتب في مطلع «فصل في الجحيم» :

«اليوم التالي ، بعد أن وجدتني أكاد أنهار ، فكرت بالبحث ثانية عن مفتاح الوليمة القديمة ، حيث قد استعيد شهيتي . المحبة هي ذلك المفتاح .» ثم يضيف : «هذا الإلهام أثبت أنني كنت أحلم!» يحلم في الجحيم ، طبعاً . في ذلك الهجوع العميق الذي لا يستطيع سبر أغواره . لقد ارغم ، هو الذي «خلق كل المهرجانات ، والانتصارات ، والدرامات» ، خلال

كسوفه ، على ان يدفن كل مخيلة . إنه يجد نفسه ، الآن ـ وهو الذي سمى نفسه مجوسياً وملاكاً ، وحرر نفسه من كل الروابط ، والإدعاءات ـ معاداً إلى الأرض ، مرغماً على قبول الواقع القاسي ، ومعانقته . الفلاح... هذا ما سيصنعون منه . وحين يعود إلى الوطن ، سيجعلونه خارج التداول .

أية أكاذيب ، اذن ، كان يغتذيها في أحلامه المتضخمة ؟ «في النهاية ، سأطلب المغفرة ، لاغتذائي بالأكاذيب» . لكن ، ممن سيطلب المغفرة ؟ ليس من معذبيه ، بالتأكيد . ليس من العصر الذي رفضه . ليس من تلك العنز العجوز ، امه ، التي ستلجمه . ممن اذن ؟ لنقل ـ من أنداده ، من الذين سيخلفونه ، ويستمرون في النضال المجيد . إنه لا يقدم اعتذاراته لنا ، ولا حتى للّه ، لكن لرجال المستقبل ، الرجال الذين سيحيونه بأذرع مفتوحة ، حين ندخل جميعاً ، المدن الرائعة . إنهم رجال« جنس بعيد » اولئك الذين ينحاز إليهم ، ويعتبرهم أسلافه الحقيقيين . وهو مبعد عنهم في الزمن ، حسب ، لا في الدم ولا في الطريقة . هؤلاء هم الرجال الذين يعرفون كيف يُغنّون تحت التعذيب . إنهم رجال روح ، وهو مرتبط بهم ، لا ارتباط الأسلاف ـ فهو لم يجد واحداً في تاريخ فرنسا كله ـ وإنما ارتباط الروح . لقد ولد في الفراغ ، وهو يتصل بهم عبره . نحن لا نسمع سوى الأصداء . ندهش لأصوات هذا اللسان الغريب . ولا نعرف شيئاً عن المسرة واليقين . اللذين يسمان هذا السمر غير البشري .

أية ارواح متنوعة ، ألِف ، وغيّر واستعبد! وأي احتضان لقيه من اناس مختلفي المزاج ، والشكل ، والجوهر ، امثال ڤاليري ، كلوديل ، اندريه بريتون . ما الذي يجمع بينه وبينهم ؟ لا شيء ، حتى عبقريته التي ضحى بها من اجل غايات غامضة . كل عمل رافض ، ليس له سوى هدف واحد : الصعود إلى مستوى آخر (اما لدى رامبو فهو السقوط إلى مستوى آخر) . لا يعيش المغني أغنيته ، إلا حين يتوقف عن الغناء . ترى... وإن كانت اغنيته

تحدياً ؟ إذن... سيكون العنف والكارثة . لكن الكوارث ، كما يقول اميل ، تجيء بإعادة عنيفة للتوازن . أما رامبو المولود تحت علامة الميزان ، فيختار النهايات المتطرفة وهو في اصطبار المتوازن .

إنها دائماً ، عصا الساحر التي تومئ ، أو النجمة السحرية...

ثم يوضع حد للحكمة القديمة ، والسحر القديم .

الموت والتجلي . ها هي ذي الأغنية الأبدية . بعضهم يبحث عن الموت الذي يختار ، في الهيئة أو الجسد ، الحكمة أو النفس مباشرة ، وبعضهم يبلغونه بصورة ملتوية .

وهناك من يؤكد الدراما بالاختفاء عن وجه الأرض بدون أن يخلف مفاتيح ، أو آثاراً ، وثمة آخرون يجعلون من حياتهم حدثاً أكثر إثارة ، من الاعتراف ، الذي هو عملهم . أما رامبو فقد استقطر موته بشكل يدعو إلى الرثاء . لقد نثر حطامه حوله ، حتى لا يخطئ احد في فهم أن فراره أمر لا جدوى منه . إلى اي مكان ، خارج العالم! هذه صرخة اولئك الذين لم تعدالحياة عندهم ذات معنى . اكتشف رامبو العالم الحقيقي طفلاً ، وحاول المناداة به شاباً وتخلى عنه رجلاً . بعد أن حرم عليه الدخول في عالم الحب ، أمست كل مواهبه سدى . إن جحيمه لم يتعمق إلى الحد اللازم ، فشوي في المدخل . ولقد كان هذا الفصل ، فترة قصيرة جداً ، لأن باقي حياته أصبح مطهراً . ألم تكن لديه الشجاعة حتى يسبح في العمق ؟ نحن لا ندري . نحن نعلم ، فقط ، أنه تنازل عن كنزه ـ كما لو كان عبثاً .

إن إخفاقه لمذهل ، وإن بلغه الانتصار . لكن المنتصر لم يكن رامبو . انها الروح المتعطشة أبداً في داخله هي التي انتصرت . «إن الملاك هي الكلمة الوحيدة في اللغة ، التي لا يمكن أن تبلى» ، كما قال فيكتور هيجو .

* * *

« يبدأ الخلق بانفصال مؤلم عن الله وخلق إرادة مستقلة ، حتى يمكن التغلب على هذا الانفصال ، في هيئة وحدة أعلى من تلك التي بدأت منها العملية » ـ هـ . هـ . برنتن ـ في سن التاسعة عشرة ، في وسط عمره تماماً ، تخلى رامبو عن الروح . قال احد كُتّاب سيرته « ماتت جنيته إلى جانبه ، بين احلامه الذبيحة » . « بالرغم من هذا ، كان رامبو كائناً خارقاً ، استنفد في سنوات ثلاث عصور الفن كلها . كما لوانه يضم حيوات عديدة داخل نفسه » كما قال جاك ريفير ، ويضيف ماتيو جوزفسن « كان الأدب ، منذ رامبو ، في نضال « من اجل تطويقه » . لماذا ؟ « لأنه جعل الشعر خطراً جداً » كما يقول الأخير . وقد اعلن رامبو نفسه في « فصل » انه« أصبح أوپرا خرافية » سواء كان أوپرا او لم يكن ، فإنه ظل خرافياً ـ لا اقل . ان الجانب الواحد من حياته ، خرافي ، شأن الجانب الآخر ، وهو الأمر المدهش . كما لو ان شكسبير وبونابارت امتزجا في واحد . الحالم ورجل الفعل . والآن انصت الى كلماته نفسها... « ارى كل الكائنات مقدراً لها الانجذاب إلى السعادة : الفعل ليس حياة ، لكنه طريقة لتبديد قوة المرء ، ولإضعافه . » ثم يندفع في الدوامة ، كأنه يحاول اثبات قوله . ها هوذا يقطع اوروبا ، ويعيد قطعها ، مشياً على قدميه ، يأخذ سفينة إلى موانئ اجنبية ، يعود مريضاً مفلساً المرة تلو المرة ، يشتغل في ألف عمل وعمل ، يتعلم اثنتي عشرة لغة او اكثر ، وبدل التعامل بالكلمات ، يتعامل بالقهوة ، والتوابل ، والعاج ، والجلود ،والذهب ، والبنادق ، والرقيق . المغامرة ، الاكتشاف ، التعلم... الارتباط بكل انماط الناس ، والأجناس ، والأمم... ودائماً : العمل العمل الذي يكرهه . لكنه السأم أولاً . كان دائم الضجر . لكن... اي حيوية! أي غنى في التجارب! وأي خواء! كانت رسائله إلى أمه شكوى واحدة مديدة ، مختلطة بالتوبيخات والاتهامات والأنين ، والتوسلات والتضرعات . التعس ، الملعون! وأخيراً يمسي « العاجز العظيم . »

ما معنى هذا الفرار ، هذا العويل غير المنتهي ، هذا التعذيب الذي يعرض نفسه له ؟ كم صحيح أن هذا النشاط لم يكن حياة! اين هي الحياة ، اذن ؟ وما هو الواقع الحقيقي ؟ يقيناً لن يكون الواقع الفظ للكدح والتشرد ، هذا العراك القذر على الممتلكات ؟

أعلن في «الإشراقات» المكتوبة في لندن الكئيبة :

«إنني فعلاً مما وراء القبر ، ولا ارتكابات» .

لقد قال هذا شاعراً . اليوم نعرف الأمر حقيقة . فالموسيقي الذي وجد شيئاً يشبه مفتاح الحب ، كما عبّر ، أضاع المفتاح . أضاع المفتاح والآلة معاً . فبعد أن أغلق الأبواب كلها ، حتى أبواب الصداقة ، واحرق خلفه كل الجسور ، لن تطأ قدماه ارض الحب . لم يبق إلا الخلوات العظمى في ظل شجرة الخير والشر الدفينة ، حيث في «صباح ثمل» يرد هذا البيت المفعم بالحنين «حتى نستعيد حبنا الطاهر» . كان يريد الخلاص في هيأة الحرية ، دون أن يدرك ان الخلاص لا يأتي إلا بالاستسلام ، من خلال التقبل . يقول معلمه بودلير «كل من لا يتقبل شروط الحيـاة ، يبيع روحه» . الإبداع والتجربة كانا متلازمين ، متزامنين ، تماماً ؛ كان يتطلب القدر الأدنى من التجربة ، كي يصنع موسيقى . وحين كان الشاب الخارق ، كان اقرب إلى الموسيقي أو رجل الرياضيات ، منه إلى الأديب . لقد ولِدَ ذا ذاكرة بالغة الحساسية .

إنه لا يكسب إبداعه بعرق جبينه ـ فهو هناك ، جاهز للسحب ، ينتظر الإستثارة بالاتصال الأول مع الواقع القاسي . كان عليه ان يتعهد الحزن ، لا براعة المايسترو . ولم يكن لينتظر طويلاً ، كما نعلم .

لقد ولد بذرة ، وبقي بذرة . هذا هو معنى الليل الذي يحيط به . في داخله كان نور ، نور عجيب . لكنه لن يرسل أشعته حتى يفنى . جاء مما وراء القبر ، من جنس بعيد ، جالباً روحاً جديدة ووعياً جديداً . ألم يكن هو

القـائل ـ «خطأ أن يقـال : أنا افكّر Je Pense ينبـغي القـول : أفكّر on me pense ـ أو لم يكن هو القائل أيضاً «العبقرية هي الحب والمستقبل» ؟ كل ما يقوله عن «انا» العبـقري ، إلهـام ووحي . وأرى هذه القـولة ذات أهمـية بالغة «جسـده هو الانعتـاق الذي حلمنا به ، وتهشم جمـال تحت وطأة عنف جديد» .

ارجو ألا أتهم بالقراءة المغالية في التعمق . لقد عنى رامبو كل ما كتب «حرفياً ، وبكل معنى» ، كما بين الأمر ، مرة ، لأمه وشقيقته . حقاً ، كان يشـير إلى «فصل في الجحيم»... ولكن... شأنه شـأن «بليك» و«جاكـوب بوهم» : كل مـا قـالوه كـان صـادقـاً ، حـرفيـاً ، وإلهـامـاً . إنهم يسـكنون المخيلة ، كانت أحلامهم وقائع ، وقائع ما يزال علينا أن نمارسـها . يقول «بوهم» :

«حين أقرأ نفسي ، أقرأ كتاب اللّه . وانتم ، يا أشقائي ، الأبجدية التي اقـرؤها في نفسـي ، لعـقلي ، وسـأجدكم داخلي . وأتمنى من كل قلبي أن تجدوني انتم ايضاً .» الكلمات الأخيرة تعبر عن الصلاة الصامتة التي كان رامبـو يرسلهـا ، باسـتـمرار ، من المـتاهة التي خلقـهـا لنفسـه . الكبـرياء «الخيرة» للعبقري تكمن في إرادته التي يجب تحطيمـها . وسر الانـعتـاق يكمن في ممارسة المحبة . المحبة هي المفتاح ، ورامبو كان يحلم حين ادركها . لكن الحلم كان حقيقة واقعة ، وهذه الحقيقة لم تظهر نفسـها ، ثانية ، إلا وهو على فراش الموت ، حين غدت المحبة ، الأخت العذبة التي رافقته إلى الماوراء... مهشماً ، ولكن منعتقاً .

في «ليلة في الجحيم» ، حين ادرك أنه عبد معموديته ، صرخ : «يا والديَّ ، لقد دبرتما تعاستي ، وتعاستكما» . في ليل الروح المعتم ، الذي أعلن نفسه ، فيه ، سيد التهاويل ، مباهياً بأنه سيكشف كل غامض ، أنكر كل ما يربطه بالعصر والبلاد التي ولد فيها . وأعلن «انا مستعد للكمال» ،

وكان هكذا ، بمعنى ما . لقد هيأ بنفسه شعائره ، وتحمل محكمة التعذيب الرهيبة ، ثم ارتد إلى الليل الذي ولد فيه . لقد ادرك أن ثمة خطورة وراء الفن ، ووضع قدمه على العتبة ، ثم تراجع ، من الفزع ، أو خوف الجنون . إما ان استعداداته لحياة جديدة كانت غير كافية ، أو ان هذه الاستعدادات كانت ذات ترتيب مغلوط .

يرى اغلب الباحثين الرأي الأخير ، مع أن الرأيين كليهما قد يكونان صحيحين . كما جرى تأكيد كثير على هذه الجملة : «اختلال مديد ، هائل منطقي ، لكل الحواس» . وقيل الكثير عن مفاسده المبكرة ، وحياته «البوهيمية» لكن المرء ينسى كم هو امر طبيعي بالنسبة لشاب مبكر النضج متفجر بالأفكار ، هرب من جو لا يطاق لمنزل في الأقاليم . وسوف يكون الأمر شاذاً ، بالنسبة لمخلوق نادر مثله ، لو لم يستجب لنداءات مدينة مثل باريس . وإن كان أسرف في انغماسه ، فليس علينا سوى القول إن التلقيح كان أكثر من القدر اللازم . إنه لم يمض وقتاً طويلاً في باريس او لندن ، وقتاً كافياً لتحطيم فتى معافى ذي بنية فلاحية . بل ان هذه التجربة تستحق الترحيب بالنسبة لشخص ثائر على كل شيء . إن طريق الجنة تمر عبر النار... اليس كذلك ؟ ومن اجل الخلاص ينبغي التشرب بالخطيئة . على المرء أن يذوقها كلها : الخطايا الكبيرة ، وتلك التافهة . عليه أن يبلغ الموت بكل اشتهاءاته ، أن لا يرفض سماً ، ان لا يرفض تجربة مهما كانت منحطة أو قذرة . عليه أن يبلغ نهاية قواه ، أن يتعلم أن المرء عبد ـ لأي ميدان كان ـ من أجل أن يتطلع الى الانعتاق . إن الإرادة المنحرفة السلبية التي رباها الوالدان ، ينبغي ان تبلغ الاستسلام ، قبل أن تتمكن من التحول إلى إيجابية ، وتمتزج بالقلب والعقل .

يجب أن ينزل الأب (بأي هيئة كان) من عرشه ، حتى يتمكن الابن من الحكم . الأب زُحَلِي في كل وجه من كينونته . إنه رجل المهمات القاسي ،

ورسالة القانون الميتة ، وعلامة الممنوع . يتمرد المرء ، يخرج مقاتلاً ، مفعماً بقوة زائفة وكبرياء زائفة . ثم يتحطم ، وتستسلم الـ «أنا» التي هي ليست «أنا» لكن رامبو لم يتحطم . لم ينزل الأب من عرشه ، بل طابق نفسه معه . وقد فعل هذا ، سواء بادعانه السلطة ، او بتجاوزاته ، وتشرده ، ولا مسؤوليته .

لقد مضى إلى الضد ، وأصبح نفس العدو الذي كرهه . تنازل ، وأمسى الهاً متشرداً ، يبحث عن مملكة حقيقية . «أن يخصي المرء نفسه ، اليست تلك طريقة أكيدة لإدانتك ؟» (كانت هذه من المسائل العديدة التي طرحها خلال احتضاره) وهذا ما فعله بالضبط . لقد أخصى نفسه ـ بتنازله عن الدور المختار له... أممكن أن الإحساس بالذنب ، لدى رامبو ، كان ضامراً ؟

أي صراع خاضه ، في الفترة «الفعالة» من حياته ، من اجل القوة ، والامتلاك ، والأمان! ألم يدرك أي كنز يمتلك ، وبأي قوة يتمتع ، وأي أمان لديه ، حين كان شاعراً ، حسب ؟ (وددت لو استطعت القول إنه كشف عن نفسه باعتباره شاعر فعل ، لكن الأحداث التي استولدت النصف الثاني من حياته ، لم تتطور لفائدة رجل الفعل .) لا... ثمة عمى يستحيل سبر أغواره ، وكان رامبو من ذلك النمط . لقد حلت به لعنة . فهو لم يفقد إحساسه بالاتجاه ، حسب ، وإنما احساسه باللمس أيضاً . كل شيء أخذ يسير في الاتجاه الخطأ . لقد غير هويته إلى حد لا يستطيع فيه التعرف على نفسه ، لو لقي شخصه في الطريق .

ربما كانت هذه آخر طريقة يائسة للتحايل على الجنون ـ أن تكون سليم العقل تماماً ، بحيث لا يعرف أحد أنك مجنون . لم يفقد رامبو ، أبداً ، الصلة بالواقع ، بل الأمر على العكس ، فلقد عانقه مثل عفريت . كان ما فعله انه بحث عن الواقع الحقيقي لكينونته . ولا غرابة في أنه ضجرحتى الموت . لم يستطع العيش مع نفسه ، فقد كانت نفسه مصادرة . في هذا المجال نتذكر كلمات لوتر يامون :

« إنني اعيش كالبازلت! في وسط الحياة ، كما في بدايتها ، الملائكة تشبه أنفسها : يا للوقت الذي مضى عليَّ منذ أن لم اعد أشابه نفسي! »

يراود الإنسان الشعور انه حاول في الحبشة حتى بتر جهاز الذاكرة . لكنه ، في الأخير ، حين أمسى «العاجز العظيم» ، وبمساعدة عضو يدوي ، تناول خيط أحلامه المخنوقة ، وذكريات الماضي ، بصورة جيدة .

كم هو مؤسف أننا لم نمتلك تسجيلاً للغة الغريبة التي انغمر فيها على سرير المستشفى وهو مبتور الساق ، وورم خبيث ضخم على فخذه ، والسرطان الداخلي يعيث خلال جسده ، مثل مجموعة قاطعي طريق مُغيرة . كانت الأحلام والهلوسات ترتطم ببعضها في بحران لا ينتهي ـ ولا أحد سوى الأخت المخلصة تصلي لروحه . الآن تنصهر الأحلام التي حلم بها ، والأحلام التي عاشها ها هي ذي الروح ، بعد ان تحررت من أغلالها ، تصنع الموسيقى ، ثانية .

حاولت شقيقته أن تقدم لنا بعضاً من تلك الألحان التي لم تسجل ، وتحدثت ـ إن كنت أتذكر بصورة صحيحة ـ عن طبيعتها العلوية . مما يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأنها لم تكن تشبه القصائد ، ولا الإشراقات . ربما كانت شيئاً آخر... شيئاً آخر ، وهبنا إياه بيتهوفن في رباعياته الأخيرة . إنه لم يفقد لمسة «المعلم» ، كان في احتضاره حتى اكثر عبقرية منه في شبابه . إنها الآن بُحراناتٌ ليس لجمل متصادمة متنافرة ، وإنما لجوهريات وخلاصات اكتسبت في الصراع مع اكثر الشياطين قسوة ، على الإطلاق : الحياة . الخبرة والمخيلة تتحدان لتشكلا أغنية ، هي عطاء ، لا لعنة أو شتيمة . إنها لم تعد (أغنيتـ) ـه ، لم تعد (علامته) . لقد طوقت الذات ، وغدت الأغنية والآلة ، واحدة .إنها القربان على مذبح الكبرياء المنزلة عن عرشها . إنها عودة الروح .

لم يعدالخلق غطرسة ، او تحدياً ، او غروراً... بل هو لعب . إنه يستطيع

الان اللعب ، على فراش الموت ، كمـا يستطيع الصـلاة ، فلقد انتهى عمله كمعذب . لقد تهشمت عارضة سفينته أخيراً ، وهو الآن ماض الى البحر . ربمـا أدرك في هذه السـاعات الأخيرة غـاية الكدح البشـري ، ادرك ان هذا الكدح عبودية حين يرتبط بالأهداف العمياء الجشعة ، وانه فرح حين يكون في خدمة الجنس البشري .

لا فرح كفرح الخالق ، لأن الخلق ليس له هدف آخر غير الخلق قال رامبـو مـرة : «لنجعل أصـابعنا صـافيـة ، أي ، كل نقـاط اتصـالنا بالعـالم الخارجي» . وبالمعنى نفسه ، صفّى اللّه أصابعه ـ حين سما بالانسـان الى مستوى الخلق . إن هزّة الخلق ماثلة في كل ابداع . الجميع ، من المـلائكة حتى الديدان تجاهد من اجل الاتصال بما هو فوقها ، وما هو دونها . لا تعب يضيع ، ولا موسيقى تتبدد بدون أن تـسمع . لكن ، في كل إسـاءة استعمـال للقدرة ،لا يُجرح اللّه وحده ، وانمـا الخليقة ذاتها تتوقف ، ويؤجل «عيد ميلاد على الأرض» أجلاً طويلاً .

«آه... لن أحزن بعدُ :
فهو يملأ حياتي .
سلاماً له كل مرةٍ
يغني فيها الديك الغاليّ» .

إنني أعرض هذين البيتين المزدوجين ، عامداً ، بنفس الروح التي ترجمت فيها خطأ كلمة «هو il» باعتبارها اللّه . ولا استطيع الا الاعتقاد بأن الانجذاب المقدّر الى السعادة الذي تحدث عنه رامبو يعني الفرح بعثوره على اللّه .

«إذن ـ سلاماً له كل مرة» .

***

أسأل نفسي ، لماذا أعبد رامبو فوق الكتّاب الآخرين ؟

لست شغوفاً بعبادة المراهقة ، ولا أقول لنفسي انه عظيم شأن كتّاب آخرين قد أشير اليهم . لكن شيئاً فيه هزّني اكثر مما فعله شخص آخر . وأتيته عبر ضباب لغة لم أسيطر عليها ، البتة! والحق أنني لم أدرك قوة كلماته وجمالها الا حين حاولت ، بكل حماقة ، ان أترجمه . في رامبو ، أرى نفسي ، كما لو كنت أنظر في مرآة . ولا اجد اي شيء قاله غريباً عني ، مهما كان وحشياً ، أو غير معقول ، او عصياً على الفهم . ينبغي ان تستسلم كي تفهم عمل كل شخص ما . وقد قمت بهذا الاستسلام منذ اليوم الأول الذي نظرت فيه الى عمله . قرأت أبياتاً قليلة ذلك اليوم ، قبل عشر سنوات او نحوها ، وأبعدت الكتاب جانباً ، بعد ان وجدتني ارتعش كالورقة . وتولّد لدي إحساس آنذاك ، وما يزال يلازمني ، بأنه قال كل شيء عن عصرنا . بدا لي كما لو انه نصب خيمة على العراء . كان الكاتب الوحيد الذي قرأته ، واعدت قراءته ، بفرح واهتياج عارمين ، دائماً ، وكنت أكتشف ، على الدوام ، شيئاً جديداً فيه ، وأهتز ، بعمق ، على الدوام ، لطهره . كل ما أقوله عنه ، ليس سوى محاولة ، ومدخل ـ ليس أكثر من لمحة . إنه الكاتب الوحيد الذي احسده على عبقريته ، أما الآخرون جميعاً ، مهما كانوا عظماء ، فلن يستثيروا غيرتي . وانتهى في التاسعة عشرة! لو انني قرأت رامبو في فتوّتي ، لما استطعت ان اكتب سطراً ابداً . كم ميمون هو جهلنا احياناً!قبل التقائي برامبو ، كان دوستويفسكي هو الأسمى عندي . وهو سيظل ، بمعنى ما ، كما سيظل بوذا ، أعز لدي ، من المسيح . بلغ دوستويفسكي قرارة العمق ، وبقي هناك زمناً طويلاً طويلاً ، وانبعث انساناً مكتملاً . انا افضل الرجل المكتمل . وأن كان علي أن أعيش مرة واحدة على هذه الأرض ، فإني أفضل أن اعرف الجحيم ، والمطهر ، والفردوس... كلها معاً . مارس رامبو فردوساً ، لكنه كان فردوساً لم ينضج بعد ، فردوساً

مبكراً . ولكن ، بسبب هذه الممارسة ، كان قادراً على إعطائنا صورة اكثر حيوية عن الجحيم . كانت حياته كرجل ـ مع انه لم يكن ، رجلاً ناضجاً ، البتة ـ مطهراً . لكن هذا نصيب معظم الفنانين . ما يسترعي انتباهي ، بشكل استثنائي ، لدى رامبو ، رؤياه للفردوس المستعاد ، الفردوس المنتزع . إن هذا ، بالطبع ، امر آخر ، غير روعة كلماته وسحرها ، اللذين اعتبرهما لا يقارنان . لكن ما يقهرني هو حياته ، التي تختلف تماماً عن رؤياه . حين أقرأ حياته أشعر بأنني اخفقت ، وبأننا جميعاً أخفقنا . آنذاك اعود إلى كلماته ـ فأراها لا تخفق أبداً .

لماذا اعبده ، اذن ، فوق الكتّاب الآخرين ؟ ألأن إخفاقه ذو طبيعة تنويرية ؟ ألأنه قاوم حتى النهاية ؟ اعترف بأنني احب كل الرجال المُسمّين متمردين او فاشلين . احبهم لأنهم بالغو الانسانية ، إنسانيون جداً .

نحن نعلم أن الله أيضاً يحبهم فوق الآخرين . لماذا ؟ ألأنهم أساس إثبات الروح ؟ ألأنهم الضحايا ؟ كم تبتهج السماء بعودة الابن الضال! أهو ابتداع من الإنسان او من الله ؟ اعتقد ، هنا ، أن الإنسان والله يحدقان معاً في بعضهما :

الإنسان إلى الأعلى ، والله إلى الأسفل . أحياناً تتلامس أصابعهما .

حين أشك فيمن أحب اكثر : اولئك الذين يقاومون ، او اولئك الذين يستسلمون ؟ اعلم أنهم واحد ، وأنهم هم أنفسهم . ثمة أمر أكيد ، هو أن الله لا يريدنا أن نأتي إليه أبرياء . علينا أن نعرف الخطيئة والشر ، أن نضل عن السبيل ، ان نتيه ، أن نكون جريئين ومستميتين : علينا أن نقاوم ما دمنا قادرين على المقاومة ، حتى يكون استسلامنا كاملاً وقانطاً . امتيازنا كأرواح حرة ، أن ننتخب الله ، مفتوحي العيون ، متدفقي الأفئدة برغبة أعظم من كل الرغبات . البريء! ليس عند الله من فائدة له . إنه الشخص الذي

«يلعب بالفردوس إلى الأبد» . إن امتياز الإنسان ، هو أن يكون أكثر وعياً ، أكثر إفعاماً بالمعرفة ، اكثر إثقالاً بالذنب .

ليس من أحد بلا ذنب . ومهما كانت درجة المرء ، فإنه يواجه مسؤوليات جديدة ، وخطايا جديدة . إن اللّه بتحطيمه براءة الإنسان ، يحوله إلى حليف قوي . لقد منحه قوة الاختيار ، من خلال العقل والإرادة . والإنسان ، في حكمته ، يختار اللّه دائماً .

لقد تحدثت سابقاً عن استعدادات رامبو لحياة جديدة ، وأعني بالطبع الحياة الروحية . وأود أن أضيف شيئاً إلى ما أسلفت... اود أن أقول إن استعداداته تلك ، ليست فقط غير كافية ، ومن النوع المغلوط ، بل انه هو كان ضحية سوء فهم خطير لطبيعة دوره . لو انه واجه معلماً لما جعل من نفسه شهيداً . كان مستعداً لمغامرة غير التي مارسها . وبتعبير آخر ، لم يكن مستعداً ، وكما يقول المثل : إذا كان التلميذ مستعداً فالمعلم دائماً هناك . لكن المشكلة انه لم يكن ليعترف «لا بمعلم ولا بإله» . كان في أشد الحاجة إلى العون ، إلا انه كان جامح الكبرياء . وبدلاً من أن يتواضع ، وينحني ، كان يرمي نفسه الى الكلاب . إن استطاعته البقاء سليماً فقط بالتخلي عن دعوته ، تجعلنا نقدر طهره ، لكنها تجعلنا ندين عصره ، أيضاً . أفكر بـ «بوهم» الذي كان كادحاً ، ويمكن القول إنه كان بلا لغة ، لكنه صاغ اغنيته لنفسه ، وبنفسه ، ومع أنها قد تكون محيرة مربكة لغير المطلع على الأوليات ، إلا انها بلّغت العالم رسالته . قد يقال ، بالطبع ، إن رامبو ، بإخراسه صوته عامداً ، نجح في التبليغ . لكن هذا لم يكن قصد رامبو . لقد احتقر العالم الذي أراد أن يهلل له ، وأنكر أن لعمله اية قيمة . لكن لهذا معنى واحداً فقط ـ أنه أراد لعمله قيمة سطحية! لو أردنا الغوص أعمق في فعل الإنكار هذا ، لقارناه بفعل المسيح ، وقلنا إنه اختار الاستشهاد ، ليمنحه مغزى خالداً . لكن رامبو اختار بلا وعي . واولئك الذين كانوا بحاجة

اليه ، والذين كانوا يبغضونه... هم الذين وهبوا عمله وحياته ، معنى . لقد نفض رامبو يديه ببساطة . لم يكن متهيئاً لتحمل مسؤولية كلماته ، عارفاً أنه لن يقبل بقيمة سطحية .

ليس غريباً أن تلتمع في القرن التاسع عشر شخصيات شيطانية . ليفكر المرء فقط بـ : بليك ، دي نرفال ، كير كجارد ، لوتريامون ، سترندبرغ ، نيتشه ، دوستويفسكي ـ كل الشخصيات المأساوية... المأساوية بمعنى جديد . كانوا جميعاً مهتمين بمشكلة النفس ، باتساع الوعي ، وبإبداع قيم أخلاقية جديدة . في محور هذا الدولاب الذي يلقي بنوره على العراء ، ينتصب بليك ونيتشه مثل نجمين توأمين ساطعين... إن رسالتهما ما تزال اليوم جديدة ، حتى لنظنهما مجنونين* . نيتشه يعيد ترتيب كل القيم الموجودة ، وبليك يبتدع كوزمولوجيا جديدة . إن رامبو قريب من الإثنين في نواح عديدة . إنه مثل نجم يبزغ فجأة ، ثم يتضخم في سطوع مرعب ، ثم يهوي إلى الأرض . («أحيا ، شرارة ذهبية من نور الطبيعة») ، في ظلمة الرحم التي بحث عنها بنفس العنف الذي تشوف فيه إلى نور السماء ، يتحول إلى راديوم . إن معدنه جوهر ، في ملامسته الخطر . ضوء يبيد إن لم يشع ويتألق . كان مثل نجم يحوم قريباً جداً من مدار الأرض .

كان غير مكتف بإرسال ألقه على الأرض . بل منجذباً بقوة قدرية إلى انعكاس صورته في المرآة الميتة للحياة . أراد أن يحول نوره إلى قوة مشعة . هذا الوهم الذي يسميه جهلاً ، لا خطيئة ، يزيد الارتباك بين ميداني الفن والحياة ، هذا الارتباك الذي أمسك برجال القرن التاسع عشر . لقد ناضلت كل الأرواح العظيمة في العصر الحديث للتحرر من هذا الأسر . فأبادتهم جميعاً صواعق جبارة . كانوا مثل من اكتشف الكهرباء ، وجهل كل ما يتعلق

---

* «ولكن سعداء! أنا الرب ، وقد صنعت هذا الكاريكاتير» .

«نيتشه ـ من مصح الأمراض العقلية»

بالعزل . كانوا متساوقين مع قوة جديدة تشق طريقها ، لكن تجاربهم قادتهم إلى الدمار .

كل هؤلاء الرجال ، ورامبو منهم ، كانوا مكتشفين ، مشرعين ، محاربين . أنبياء . وصادف انهم أصبحوا شعراء . إن مواهبهم الخارقة ، وحقيقة عدم نضوج عصرهم لمجيئهم ، معاً ، كانت السبب في خلق جو الإخفاق والإحباط .

كانوا ، بمعنى أعمق مغتصبين ، ويذكرنا مصيرهم بعذاب ابطال المسرحيات الإغريقية . كانت الأرواح المنتقمة تطاردهم وتحط من قدرهم ، هذه الأرواح المنتقمة ، هي الحماقات ، بتعبيرنا الحديث . هذا هو الثمن الذي يدفعه الإنسان حين يحاول الارتفاع بالمستوى السحري لآلهته ، حين يحاول العيش متوافقاً مع القواعد الجديدة ، قبل أن يثبت الآلهة الجدد أقدامهم . هذه الآلهة ، هي - بالطبع - انعكاس قوى الإنسان الداخلية وهي تتسامى . إنها تمثل العنصر السحري في الخلق ، وهي تعمي وتسكر ، لأنها تمزق الظلام الذي بزغت منه . وقد عبر بودلير عن المسألة ، من أعماق تجربته المُرَة ، حين قال : «ممنوع على الإنسان ، تحت طائلة تشويه السمعة والموت المعنوي ، أن يخل بالشروط الأولية لوجوده ، وأن يفسد توازن قواه مع الأوساط المقدر لها أن تهزها قواه . ممنوع على الإنسان أن يخل بمصيره ليستبدل به ، قدر جنس جديد...»

باختصار ، على الحالم أن يرضى بأنه يحلم ، واثقاً من أن (المخيلة تصنع الجوهر) . هذه هي وظيفة الشاعر . وهي الأسمى ، لأنها تبلغه المجهول - تبلغه حدود الخلق . المعلمون هم ابعد من سلطان الإبداع ؛ فهم يعملون في النور الأبيض الطاهر للكينونة . لقد انتهوا من الصيرورة ، وامتزجوا بقلب الخلق ، كاملي التحقق كرجال ، ومتألقين بتوهج الجوهر السماوي . لقد بلغوا من تجلي النفوس مرتبة ، ليس عليهم فيها إلا أن يشعروا الوهيتهم .

الصفوة ، باعتباره مَهَرة ، يجدون مأواهم اينما حلوا . إنهم يعرفون معنى الجحيم ، لكنهم لا يستطيعون تحديد مكانه ، حتى كوجود أرضي . إنهم يستمتعون بالفواصل بين حالة وجود وأخرى . أما الأرواح الحرة ، المعذبة ـ المولودة خارج الزمن والوتيرة ـ فلا تستطيع تفسير حالاتها الوسيطة ، إلا بأنها الجحيم ذاته . كان رامبو من هذه الأرواح . أما الضجر الموجع الذي عاناه فقد كان انعكاساً للفراغ الذي عاش فيه ـ الفراغ غير المادي ، سواء كان من خلق رامبو أم لم يكن . ثمة شيء واحد واضح بهذا الخصوص : لم يستطع ان يستعمل قواه . إنها حقيقة جزئية ، بالتأكيد ، لكن هذا الجانب من الحقيقة هو الذي يهم المثقف . إنها ـ بتعبير آخر ـ الحقيقة التاريخية . والتاريخ يميل اكثر فاكثر إلى أن يعرف باعتباره قدر الإنسان .

بين الحين والآخر ، ومن نهر الحياة العميق الخفي ، تصّاعد ارواح عظمى في هيئة البشر ، ومثل إشارات النور في الليل ، تنذر بالخطر المقبل... لكن نداءها لا يلقى الإصغاء من اولئك «المنبوذين ، لكن الذين ما يزالون يوقدون قاطرات» (أرواح العصر المزيفة) «تتشبث بالسكة إلى حين» . يقول رامبو إن ثقافة هذه الأرواح بدأت بالمصادفات . في هذا الجو من المصادفة والكارثة الذي يتجاوز المستوى التاريخي للتأويل ، نجد الشخصيات الشيطانية ، المسكونة بالتوق إلى البعيد ، هم الخفراء الذين يبرزون بغتة ، في أحلك ساعات الليل . وصوتهم هو الصوت الذي لا يبالي .

مستنقعات الثقافة الغربية التي تنتظر القطارات الفاخرة الخارجة عن قضبانها ، حيث تجلس أرواحنا الغبية تغزل أقوالها المأثورة ، هذه المستنقعات ، وصفها رامبو ، وصفاً بارعاً . «أرى أن انزعاجاتي هي بسبب فشلي في أن أفهم بالسرعة اللازمة أننا من العالم الغربي . مستنقعات الغرب!»

بين الحين والآخر ، خلال مكثه في الأعماق السفلى ، يلاحظ ، كما لو

انه يتقلب في نومه ـ «ها هي ذي الحياة ثانية!» نعم... إنها لحياة . لا خطأ في الأمر . لكنها ، فقط ، الوجه الثاني من العملة . أما هو ، فمهما سخر من الحياة ، إلا انه يجب أن ينتهي منها ، يجب أن يراها بأسرها . ليس ثمة حياة اخرى له... لقد اختارها مما وراء القبر . كل عناصر شخصيته رُسمت عند ميلاده . وهي ستمنح مصيره الطابع الفريد لعذابه .

ولسوف يعاني ، ليس فقط بسبب ان والديه ارادا ذلك ، سوف يعاني بسبب كامل مسيرة التطور التي مرت بها الروح البشرية . سوف يعاني ، بالضبط ، لأن الروح البشرية ، في المخاض ، سوف يعاني ، معاناة البذرة تسقط في تربة عقيم .

لِمَ يبدو النصف الثاني من حياته ، في ضوء هذه التأملات ـ أكثر غموضاً وإلغازاً ، من النصف الأول ؟ ألا تقرر شخصية المرء ، مصيره ؟ نحن نصير ما نحن . وكل ما عدا ذلك لعبة الصدفة . المصادفات السعيدة ، وحوادث الحظ الغريبة ، لها معنى رفيع . الإنسان متساوق مع نفسه دائماً ، حتى حين يرتكب فجأة ، جريمة فظيعة ، في لحظة غير متوقعة من حياة جديرة بالثناء .

وغالباً ما يرتكب الشخص الفاضل أكثر الجرائم مبعثة على الاشمئزاز . ينبه رامبو ، ويكرر التنبيه ، إلى سماته السيئة . والحق أنه يؤكدها . حين تحدثت سابقاً عن النصف الأخير من حياته ، واعتبرته مشابهاً لكالفاري ، كنت أعني أنه أطلق العنان لحوافزه . لقد صلب رامبو ، ليس بسبب خصائصه الاستثنائية ، التي كان باستطاعتها أن تجعله يتحمل أي محكمة تعذيب ، وإنما بسبب استسلامه إلى غرائزه . وقد كان هذا الاستسلام يعني عند رامبو التنازل : الجياد الجامحة تتولى أمر العنان . يا للعمل المطلوب الآن للعثور على الطريق المستقيم! أحياناً ، يبدو رامبو وكأنه رجل غير مختلف كثيراً باعتباره رجلاً سائباً . ما يزال الشاعر يستطيع تمييز نفسه ، ولو في الطابع الشاذ لتصرفاته . تتبع الأماكن التي سمح لنفسه بأن تنجذب إليها! إنه

مبحر ، عائد في كل ميناء أوربي متجه الآن هنا ، متجه الآن هناك ـ قبرص ، النرويج ، مصر ، جاوة ، الجزيرة العربية ، الحبشة . فكر بمتابعته ، ودراساته ، وآماله! كلها تحمل علامة «غريبة» . إن مشاريعه جريئة وطريفة ، مثل تحليقاته الشعرية . وحياته ما كانت مملة ، مهما بدت له كئيبة مؤلمة... كان في أواسط العمر ، هكذا يفكر الموظف . نعم... إن عديداً من المواطنين الوقورين ، دع عنك الشعراء ، مستعدون للتضحية بذراع أو بساق ، كي يقلدوا حياة رامبو المغامرة . الباثولوجي قد يسمي الأمر «جنون التنقل» ، لكنه النعيم بالنسبة للمقيم . والأمر عند الفرنسي الذي يتعهد بستانه ، جنون خالص أيضاً . كانت مرعبة حتماً ، تلك الدورة حول العالم بمعدة خاوية . وربما بدت اكثر جنوناً ، وإرعاباً ، حين عرف الناس أنه اصيب بالدوزنتاري ، بسبب انه كان يحمل دائماً في هميانه مبلغ أربعين ألف فرنك ذهباً . كل ما فعله كان شاذاً ، خارقاً ، عجيباً . كان تطوافه مشتبك ألوان لا ينقطع . صحيح أن هناك عناصر العاطفة والخيال التي نحبها في كتابته ، لكن ثمة بروداً في أفعاله ، تماماً ، مثل ذلك البرود في تصرفه شاعراً . حتى في شعره... النار الباردة ، ذلك النور بلا دفء . كان هذا البرود عنصراً اتسمت به امه ، وزادته عنده بتصرفاتها إزاءه ، كان رامبو في نظرها ، الشخص الذي لا تستطيع توقع ما يصدر منه ، والألهية الكئيبة لزواج بلا حب . ليجهد نفسه ما يشاء ، بغية التحرر من المدار الأبوي... فليجدنها هناك ، مستعيدة إياه ، مثل حجر المغناطيس .

إنه يستطيع تحرير نفسه من متطلبات العالم الأدبي ، لا من امه ، البتة . كانت مثل نجمة سوداء تجذبه . لِمَ لم ينسها ، تماماً ، كما نسي آخرين ؟ واضح أنها صلته بالماضي الذي لا يستطيع منه فكاكاً . وغدت ، في الواقع ، هي الماضي . كان أبوه أفاقاً ، أيضاً ، كما يبدو ، وأخيراً ، بعد ولادة رامبو مباشرة ، مضى إلى الأبد . لكن الإبن ، مهما طوف بعيداً ، لن

يستطيع الإفلات . لقد حل محل أبيه ، ومثل ابيه ظل يزيد تعاسة امه تعاسة . هكذا نراه يطوف ، ويطوف ، حتى يبلغ أرض الرعاة «حيث البقر الدرباني يحلم ، مدفوناً في العشب حتى مساقط الندى» . انا متأكد من انه يحلم هناك أيضاً ، لكن ، أكانت أحلامه عذبة ، أو مريرة... ؟ لا أحد يعلم . فهو لم يعد يدونها ، إنه لا يقدم هنا سوى الملحوظات الهامشية ـ تعليمات ، طلبات ، شكاوى . هل وصل الحد الذي لم يعد تسجيل أحلامه ضرورياً فيه ؟ هل أصبح الفعل هو البديل ؟ ستظل هذه الأسئلة قائمة الى الأبد . كان لا يزال مسكوناً ، مدفوعاً . وهو لم يتخل عن مهمة المبدع في أن يتدفأ بالنور . إنه طاقة متدفقة ، لكنها ليست طاقة مخلوق «مطمئن القلب» .

اذن ، اين يكمن اللغز ؟ ليس في سلوكه الظاهري ، يقيناً . فهو كشخص ذي نزوات متناغم مع نفسه . ونحن نستطيع تتبعه حتى حين يحلم بأن يكون له ابن يوماً ما ، وأن هذا الابن سيغدو مهندساً!

الفكرة مشوشة قليلاً ، لكننا نستطيع ابتلاعها . أتراه لم يهيئنا لنتوقع أي شيء منه ؟ أتراه غير إنساني إلى الحد اللازم ؟ أليس له الحق في أن يداعب مسائل كالزواج ، والأبوة ، وما يماثلها ؟ أليس من حق الشاعر الذي يستطيع صيد الفيلة ، ويكتب إلى أهله يطلب «الدليل النظري والعملي للاستكشاف» ، والذي يحلم بكتابة دراسة إلى «الجمعية الجغرافية»... أليس من حقه أن يتمتع بزوجة بيضاء وطفل ؟ أي غرابة في هذا ؟ يستغرب الناس من انه كان يعامل عشيقته الحبشية معاملة حسنة . لم لا ؟ أعجيب إلى هذا الحد ، أن يكون مهذباً ، مؤدباً ، وحتى متروياً... أن يؤدي بين «آونة وأخرى» عمل خير صغيراً ، كما قال ؟ لنتذكر خطاب شايلوك!

لكن ما نستطيع ابتلاعه ، ويقف في حلوقنا ، هو تخليه عن الفن . هنا ، يأتي «السيد كل الناس»... ها هي ذي جريمته ، كما نود أن نقول . نحن

قـادرون على غـفـران كل اخطائـه ، وخطايـاه ، وتجـاوزاته ـ إلا هذه . إنهـا التحدي الذي لا يغفر... أليس كذلك ؟ كم نفضح أنفسنا هنا!

نحن ، جـمـيعـاً ، نحب أن نهـرب أحـيانـاً... أليس كـذلك ؟ نحن نضـيق بالأمـر كله حد المـرض ، لكننا نتـشـبـث بأمـاكننا . نتـشـبـث لأننا نفـتـقـد الشجاعة والمخيلة اللتين تجعلاننا نفعل ما فعله . نحن لا نبقى في أماكننا إحسـاسـاً بالتضامـن . لا... فالتضامـن أسطورة ـ في هذا العـصر ، في الأقل . التضامن هو للعبيد الذيـن ينتظرون ، حتى يغدو العالم كله غابة ذئاب هائلة ، وآنذاك سيثبون جميعاً ، وفي وقت واحد ، ليمزقوا وينهشوا ، مثل وحوش جشعة .

رامبو كان ذئباً وحيداً . وهو لم ينسل خفية من الباب الخلفي وذيله بين رجليه . لم يفعل شيئاً كهذا ، البتة . فقد وضع إبـهامـه على أنفـه ، وبسط أصابعه بوجه جبل «پارناس» ـ وبوجوه القضاة ، والقسـاوسة ، والمـعلمين ، والنقاد ، والنخاسين ، والأغنياء ، والمشعوذين ، الذين يتألف منهم مجتمعنا الثقافي الشـهير . (لا تـخدع نفسـك فتظن أن عصره كان اسوأ من عصرنا! لا تظن ، لحظة ، ان هؤلاء التافهين ، والحمقى ، والضباع ، والفارغين على كل مـسـتـوى ، قد اختـفـوا!) لا... لم يكـن قلقـاً من انه لن يُتـقـبل... لـقـد احـتـقـر الحاجات التافهة التي يتوق إليها أكثرنا . كـان يرى فيـهـا كلها كومة نتنة ، ويرى أن كـونه صـفـراً تاريخـيـاً آخـر لن يؤدي به إلى مـكان . كـان يريد أن يحيا ، يريد فضاء أوسع وحرية اكثر .

بينمـا فتح أزرار سـرواله ، وبال على الأعمـال الأدبية ـ ومن علو شـاهق . كما عبر «سلين» مرة .

إن هذا ، يا عبيد الحياة الأعزاء ، امر لا يغتفر... أليس كذلك ؟ ها هي ذي الجريمة ، اليس كذلك ؟ حسناً ، فلننطق بالحكم .

«رامبو ، لقد وُجدت مذنباً . وسـوف يقطع رأسك بإتقـان ، في مكان

عام ، باسم فناني العالم المتحضر الساخطين .» في هذه اللحظة ، وأنا أفكر بالبهجة التي تغمر الحشد المندفع لمشاهدة المقصلة ، وخاصة حين تكون الضحية «مختارة» ، اتذكر كلمات «الغريب» في رواية ألبير كامو ـ وأعرف ما معنى أن تكون روحاً غريباً . كان الادعاء وضع ، للتو ، أمام الذين حضروا محاكمة هذا «الوحش» السؤال البلاغي الآتي : «هل عبر عن أسفه ،حسب ؟ أبداً ، أيها السادة . لم يحدث مرة واحدة ، في مجرى التحقيق ، أن استنكر فعلته الشنعاء .» (لاحظ ان هذه ، هي الجريمة الحقيقية دائماً... لا الجريمة ذاتها .) وهكذا في هذه النقطة ، يستأنف الضحية مناجاته الداخلية... «وفي هذه اللحظة ، استدار نحوي ، وأشار إلي بإصبعه ، مكملاً اتهامي بما لا أطيق ، دون ان أفهم ، في الحقيقة الدوافع التي تحمله على ذلك . مما لا شك فيه أنني لم اكن قادراً على منع نفسي من الاعتراف بصواب ما يدلي به . فأنا لم أكن شديد الأسف على ما فعلت ، غير أن عناده المتمادي كان يدهشني . ولقد كان بودي أن أشرح له ، قلبياً ، بل بمحبة ، أنني لم أستطع ، في يوم من الأيام ، أن آسف حقاً ، على شيء ما . فقد كنت دوماً مأخوذاً بما سيحدث اليوم أو غداً . ولكني ، في الحالة التي صرت اليها ، لم يكن بإمكاني ، طبعاً ، أن اتحدث إلى أحد ، باللهجة التي كنت اتمناها ، إذ كنت متجرداً من حق إظهار محبتي ، وخلوص نيتي ، وإرادتي . ومن جديد ، حاولت أن أصغي ، لأن المدعي العام راح يتحدث عن روحي»* .

في الفصل المعنون «خلق الشاعر» من «مهرجان وملائكة» ، يضع والاس فولي اصبعه على ذلك الجانب المتفوق من رامبو ، الجانب الذي ميزه ، والذي يميز ، في رأيي ، بطولة الشاعر . يقول فولي : «العبقري سيد

* هذا النص من «الغريب» مأخوذة ترجمته العربية من طبعة شركة الكتاب اللبناني سنة ١٩٦٧ .

الصمت وعبده ، معاً . إن الشاعر موجود ليس فقط في الكلمات التي يوقعها باسمه ، وإنما هو موجود ، كذلك ، في البياضات التي تظل على الورقة . صدقه سلامته ، وقد عاش رامبو سليماً بصورة مجيدة .»

ومن المدهش أن نلاحظ كيف استخدم رامبو نفسه كلمة «سليم» . «المجرمون يقرفون كالقضاة . أما أنا فسليم ، وهذا ما يعادلني» كان يرى القاضي والمجرم ، المتمرد والمتواطئ ، خاضعين للنير نفسه . والشاعر يعاني القدر نفسه . إنه مصفد ، أيضاً ؛ روحه غير طليقة ، ومخيلته لا تستطيع الانطلاق حرة ، لذا يرفض رامبو ان يثور . إنه يتخلى . وكانت الطريقة الأكيدة ـ مع انه لم يقصدها ـ لجعل تأثيره محسوساً . وقد جعل حضوره محسوساً ، بلجوئه إلى صمت حازم . وهو يقترب في هذا ، من طريقة الحكيم* . هذا الصمت أكثر فاعلية من إطلاق المدافع . وبدلاً من ان يكون الشاعر صوتاً آخر ، يغدو الشاعر الصوت ـ صوت الصمت . عندما تكون في العالم ، جزءاً منه ، قل قولتك... ثم اغلق فمك الى الأبد! لكن... لا تستسلم ، لا تنحن! العقاب ؟ الطرد . الطرد الذاتي ، ما دام المرء رفض ، فعلاً ، العالم . أهو قدر بهذا الرعب ؟ أجل... إلا إذا كان المرء يتطلع إلى ضوء الشهرة . هناك ، إيضاً ، من يسكن في الصمت والظلام . العالم مكون من ثنائيات ، في الميدان الروحي ، وفي الميدان الفيزيائي .

والشر له مكانه الفسيح شأن الخير . والظلام كالضياء . الظل والجوهر دائماً . فجر العالم ، بالنسبة لرجل الله ، هو المكان الذي لا يسكنه أحد... لأنه مملكة الاضطراب . في هذه المنطقة وضع نيتشه آلهته الساقطة . «في هذه المملكة لا نتبين الخير ولا الشر . إنها وادي الموت الذي تعبره الروح ،

---

* ألم يحاول لاو ـ تسي الشيء نفسه ؟

الفترة المظلمة التي يفقد فيها الإنسان علاقته بالأكوان . وهي أيضاً ، زمن القتلة» . لم يعد الرجال ينبضون بالتشوف ، إنهم يتدافعون ويتصادمون حقداً وبغضاً .

ولأنهم لا يملكون ما يدرعونه ، فهم لا يعرفون الصعود .

ولأنهم لا يعرفون التوتر ، فهم لا يأتون بغير رد الفعل .

اعترف انسان العصر الوسيط بـ «أمير الظلام» ، واحترم احتراماً صحيحاً قوى الشر . لكن إنسان العصر الوسيط اعترف ، إيضاً ، باللّه .

لذا كانت حياته غنية ، مليئة . وبالمقارنة ، نجد حياة الإنسان الحديث شاحبة خاوية . إن الرعب الذي يعرفه يتجاوز كل رعب عرفه أهل العصور السالفة ، ذلك لأنه يعيش في عالم غير حقيقي ، محاطاً بالأشباح . وليست لديه حتى إمكانات الفرح والمخاض ، التي كانت متاحة لعبيد العالم القديم . أمسى ضحية فراغه الداخلي هو ، أما عذاباته فهي العقم . وقد قدم لنا «أمييل» الذي كان على معرفة جيدة بالعصر ، وكان أيضاً «ضحية» له ، كشفاً عن «عقم العبقري» . «انه من اكثر التعابير التي يرددها الإنسان خطراً . ومعناه أن النهاية ماثلة» .

في حديثي عن النهاية ، لا استطيع إلا استعادة كلمات «أمييل» حين أذكر الاشمئزاز الذي أثارته لديه كتابات «تين» . «إنها لا تثير أي شعور ، وهي ببساطة وسيلة إعلام . واتخيل هذا الشيء سيكون أدب المستقبل ـ أدباً على الطريقة الأمريكية ، مختلفاً اختلافاً كبيراً عن الأدب الإغريقي ، يعطينا الجبر بدل الحياة ، والصيغة بدل الصورة ، وزفير البوتقة بدل الجنون السماوي لأبوللو . ستحل الرؤية الباردة محل مسرات الفكر ، وسوف نشهد موت الشعر ، مطروداً منبوذاً من قبل العلم .»

في حالة المنتحر ، لا نهتم إن كان موته سريعاً او بطيئاً ، او ان عذابه كان شديداً أو هيناً . العمل هو المهم لدينا ، لأننا نكون ، بغتة ، أمام إدراك

أن تكون وأن لا تكون ، باعتبارهما عملين ـ لا فعلين لازمين! مما يجعل الوجود والموت مترادفين .

للانتحار فعل الانفجار ، فهو يهزنا ، لحظة ، إلى الوعي . ويجعلنا ندرك أننا نحن عميان وموتى . كم هو نموذجي لعصرنا الذي نخره المرض ، أن ينظر القانون إلى مثل هذه المحاولات بقسوة منافقة! نحن لا نريد أن يذكرنا أحد بما تركناه مشيراً إلينا ، إلى الأبد .

كان رامبو المنتحر الحي . وهذا ما لا نطيقه أكثر! لو انه مات ميتة معقولة في التاسعة عشرة! لكن... لا . لقد ظل انتحاره مديداً ، وجعلنا نشهد ، خلال حماقة حياة ضائعة ، الموت الحي الذي نلحقه بأنفسنا . لقد خطط مجده الخاص ، حتى ندرك تفاهة جهودنا ، اكثر . وكدح مثل زنجي ، حتى نستمتع بحياة العبودية التي تبنيناها . كل الخصال التي أظهرها في سنوات صراعه الثماني عشرة مع الحياة ، كانت خصالاً مؤدية ، بتعبيرنا اليوم ،« إلى النجاح » . كان انتصاره انه حول إلى نجاح ، ذلك الاخفاق المرير . إن إقامة ذلك الدليل ، تحتاج الى شجاعة شيطانية . حين نأسى للمنتحر فنحن نأسى لحياتنا ، حقاً ، نحن الذين تنقصنا الشجاعة كي نقتدي به . نحن لا نستطيع التغاضي عن فرار واسع من الصفوف ، إذ أن الأمر سيضعف معنوياتنا . نحن نريد ضحايا حياة ليرافقونا في تعاستنا . ونحن نعرف بعضنا جيداً ، بل جيداً جداً . نحن نبغض بعضنا . لكننا نستمر في مراعاة التهذيب التقليدي للديدان . ونحاول أن نكون هكذا حتى حين يبيد احدنا الآخر...

كلمات أليفة... أليست كذلك ؟ سيعيدها علينا لورنس ، وسلين ، ومالاكيه ، وآخرون . وسوف يشتم الذين يستعملون هذه الكلمات باعتبارهم مرتدين ، وآبقين ، وفئراناً يهجرون السفينة الغارقة . (كأن الفئران لم تتمتع بذكاء فائق!) لكن السفينة تغرق ، ولا جدال في ذلك . حدثنا لورنس عن

الأمر في رسائله الحربية ، وثانية... سانت اكسوبري فيما كتبه عن «موبي دك» في كتابه الرائع «طيار حربي» .

لا شك أننا سائرون إلى النهاية . لكن... اين الفُلك التي ستحملنا عبر الطوفان ؟ ومن أية مواد ستُصنع ؟ أما عن المختارين للفلك ، فلا حاجة إلى القول إنهم يجب أن يكونوا من نسيج غير نسيج الرجال الذين صنعوا هذا العالم . نحن نقترب من النهاية ، وإنها لنهاية كارثة هذه التي نواجه .

لم تعد التحذيرات بالكلم تهزنا . الأعمال هي المطلوبة ، ربما الأعمال الانتحارية... لكنها الأعمال المفعمة بالمعنى .

كان تخلي رامبو عملاً من هذا النوع . كان خميرة الأدب . فهل سيكون خميرة الحياة ؟ اشك في هذا . أشك أن يصد أي شيء ، المد الذي يهدد بابتلاعنا . لكن ثمة شيئاً واحداً حققه مجينه ـ لقد حول منا اولئك الذين ما يزالون ذوي وجدان ، ما يزالون متطلعين نحو المستقبل ، إلى «سهام من الحنين إلى الشاطئ الآخر .»

* * *

المهم في الموت ، بالنسبة للإنسان ، أنه يستطيع التمييز بينه وبين الفناء . الإنسان يموت من اجل شيء . إن كان يموت . إن النظام والتناسق اللذين يطلعان من الفوضى الأولى ، كما تخبرنا الأساطير ، يصهران حيواتنا بغاية بعيدة عنا ، غاية نضحي بأنفسنا في سبيلها حين نحقق الادراك .

وتتم هذه التضحية على مذبح الخلق . ليس شيئاً ما نخلقه باللسان واليد ؛ إن ما نخلقه بحيواتنا هو المهم .

نحن لا نبدأ في الحياة ، إلا حين نجعل أنفسنا جزءاً من الخلق .

ليس الموت هو الذي يتهددنا في كل خطوة نخطوها... لكنها الحياة .

لقد منحنا آكلي الموت ، التشريف ، لكن ماذا عن الذين يقبلون تحدي

الحياة ؟ بأي طريقة نشرفهم ؟ من إبليس إلى ضد ـ المسيح ، يتدفق لهب من الألم الذي ظل الإنسان يمنحه التشريف ما دام «مجرد إنسان ؛ لذا ، فعلى أساس هذا الألم الذي هو لهب الحياة ، يجب أن نعارض التقبل الوقور للمتنورين . على المرءأن يمر عبر اللهب ، كي يعرف الموت ويعانقه . قوة المتمرد ، الذي هو الشرير تكمن في صلابته ، لكن القوة الحقيقية تكمن في الاستسلام ، الذي يسمح للمرء أن يكرس حياته ، من خلال الإخلاص ، إلى شيء أبعد منه .

القوة الأولى تؤدي إلى العزلة ، التي هي إخصاء . بينما تؤدي القوة الثانية إلى التوحيد ، الذي هو خصب دائم .

لكن للألم سببه ، دائماً ، وقد بلغ ألم الخالق قمته ، في ألم مسيح جسد العذاب البشري كله . ألم الشاعر نتيجة لرؤياه ، ورؤيته الحياة جوهراً ، كلاً كاملاً .

لكن ، لو تهشمت هذه الرؤية أو اختلت ، مرة ، فإن الألم ينضب . نحن في ميدان الفن نقترب من نهاية الألم . ومع أننا ما نزال نبرز عمالقة منتجين ، إلا ان اعمالهم ترقد مثل شواهد قبور متساقطة بين الآثار الرائعة للأزمنة القديمة ، هذه الآثار التي ما تزال ، منتصبة ، سليمة . المجتمع ، بكل قدراته ، لا يستطيع دعم الفنان ، إن كان هذا المجتمع مغلقاً عن رؤية الفنان . والصوت الذي يرتفع ، لا مبالياً ، بين حين وآخر ، سيصمت . وسيكون جواب الفنان على فوضى المجتمع : أن يصم أذنيه . وكان رامبو أول من فعل هذا . فسحرنا مثاله . علينا ألا نبحث عن تابعيه بين شخصيات عصرنا الأدبية . بل نبحث عنهم بين المتنحين . بين الشباب المرغمين على أن يخنقوا عبقريتهم . لننظر ، اول الأمر ، الى بلادنا ، اميركا ، حيث العبء أثقل . في هذا الشكل الجديد من الاحتجاج ، نساعد على تحطيم البيضة . وهذه هي الطريقة الأكيدة لنسف البناء المتداعي لمجتمع مهترئ .

كما أن مفعولها أسرع وأبقى من كل الدمار الذي تجلبه القلاع الجبارة . إن كان الشاعر ، لا يجد له مكاناً ، او نصيباً ، في ولادة نظام جديد ، فعليه أن ينسفه من الأساس . إن هذا ليس تهديداً خيالياً . إنه فعلي . وهو فاتحة لرقصة موت أكثر رعباً من رقصة القرون الوسطى .

الأرواح الخلاقة الوحيدة في العصر الحديث ، هي الكائنات الشيطانية ، وفيها يتركز الألم الذي ينضب شيئاً فشيئاً . لقد اكتشف هؤلاء ، من جديد ، نبع الحياة ، تلك الوليمة القديمة التي بحث عنها رامبو ، كي يستعيد شهيته ، لكن وسائل اتصالهم قد قطعت . لم يعد الناس يتصلون ببعضهم ، هذه هي مأساة العصر الحديث .

منذ وقت طويل . لم يعد المجتمع مجموعة ، لقد تهشم إلى تجمعات لذرات عاجزة . والأمر الوحيد الذي يستطيع توحيدها ـ حضور اللّه وعبادته ـ غائب .

حين كتب رامبو ، بالطباشير على أبواب الكنائس ، وهو لا يزال في اول فتوته : «يسقط اللّه!» ، اثبت انه اقرب إلى اللّه من القوى التي تتحكم بالكنيسة .

لم تكن غطرسته وتحدياته موجهة ، البتة ، ضد الفقراء ، والمنكودين ، والمؤمنين حقاً ، كان يكافح المغتصبين والمدعين ، يكافح كل ما هو زائف ، وباطل ، ومنافق ، ومدمر للحياة . كان يريد أن تعود الأرض فردوساً ، مثلما كانت ، ومثلما هي ما تزال... خلف حجاب الوهم والضلال . لم يكن مهتماً ، أبداً بفردوس أشباح ، واقع في ما وراء أسطوري . كان يرى عيد ميلاد الأرض ، الآن ، هنا ، مجسداً ، حيث الناس أعضاء في مجموعة عظمى ، متدفقة بنار الحياة . علينا أن نموت كي نحيا هذه ليست كلماته ، لكن معناها له . يكمن الموت في الانفصال ، في عيشنا مبتعدين عن بعضنا . وهو لا يعني مجرد التوقف عن الكينونة . إن

حياة غير ذات مغزى ، اليوم ، لن تكون ذات مغزى ، فيما بعد . وأعتقد أن رامبو قد فهم هذا الأمر ، بوضوح . كان تخيله ، بهذا المعنى ، إصراراً . لقد ادرك أن مقومات الفن لا يمكن أن يعاد بناؤها ، إلا في الصمت والعتمة . وتتبع قوانين كينونته حتى النهاية محطماً كل الأشكال ، ومنها أشكاله هو ، منذ أوائل بدايته في المهنة ، فهم ما لم يفهمه الآخرون إلا في النهاية... هذا إن كانوا فهموا ، أساساً ـ فهم أن الكلمة المقدسة لم تعد شرعية . ادرك أن سم الثقافة قد مسخ الجمال والصدق إلى تصنع وخداع . أجلس الجمال على ركبتيه ووجده مراً . فهجره ، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي لا تزال عنده ، كي يمجد الجمال . ماذا قال أيضاً عن أعماق الجحيم ؟

«أخطاء يهمس لي بها ، شعوذات عطور مزيفة ، انغام صبيانية» .

ـ في رأيي أن هذا البيت هو اكثر ابيات «فصل» كابوسية وإرباكاً ـ .

عندما تباهى رامبو بأنه يمتلك كل المواهب ، كان يعني ـ على هذا المستوى التافه! أو ـ بهذا القناع الثقافي الكاذب . وكان في هذا الميدان ، بالطبع ، معلماً . لكنه ميدان الاضطراب حيث أي شيء له القيمة نفسها... شأن الأشياء الأخرى ، أي لا قيمة له . أتريدني أن اطلق الصفير ؟ أتريد رقصة مغامرة ؟ حسناً . أي شيء تريد . اطلب فقط! كل ما عبر عنه رامبو في كتاباته يعلن هذه الحقيقة ، وهي «اننا لا نعيش وسط الوقائع ، وإنما وسط الأعماق والرموز .» . السر الذي يتخلل كتابته يخترق حياته . نحن لا نستطيع شرح افعاله ، نستطيع ، فقط ، أن نسمح لها بكشف ما نريد معرفته . كان سراً لنفسه ، مثلما كان سراً للآخرين ، غامضاً فيما يقول ، مثلما هو غامض في حياته اللاحقة على وجه الأرض . كان يرى في العالم الخارجي ملجأ . ملجأ... مم ؟ ربما من رعب الوضوح . إنه مثل قديس بالمقلوب . لديه ، يأتي النور أولاً ، ثم معرفة الخطيئة وتجربتها . كانت

الخطيئة بالنسبة له سراً ينبغي أن يرتديه ، كما كان يرتدي التوابون القدامى ، قميص الصوف .

نقول انه هرب بعيداً . لكنه... ربما هرب من اجل شيء ما .

والواضح انه تجنب نوعاً من الجنون ، ليقع ضحية نوع آخر . وما ان يتجنب مأساة ، حتى يواجه اخرى . إنه شخص مستهدف . و«هم» وراءه .

إن تحليقاته الشعرية التي تشبه مراحل متعاقبة في بُحرانٍ متقطع ، هي مثل تحليقاته المجنونة التي كانت تدفعه من ركن في العالم ، إلى ركن .

وكم من مرة جيء به مسحوقاً مهيضاً!

كان يستريح ، فقط للمدة التي يستعيد فيها قواه ، ويرمم نفسه ، مثل سفينة حربية ، او قاذفة قنابل بعيدة المدى . ها هوذا جاهز للعمل ثانية . زوم! وها هو ذا يطير ، محلقاً نحو الشمس!

إنه يبحث عن النور ـ والدفء البشري . يبدو أن اشراقاته قد أنضبت منه كل دفء طبيعي ، إن في دمه ذوبان جليد .

لكن... كلما حلق أبعد... احاط به الظلام اكثر .

الأرض مغلفة بالدم والظلام .

وجبال الجليد تتجه إلى القلب .

يبدو أن قدره ، أن يمتلك أجنحة ، ويبقى مغلولاً إلى الأرض .

إنه يجهد من اجل أن يبلغ أقصى النجوم ، ليجد نفسه مولولاً في الوحل . والحق انه كلما خفق بجناحيه أكثر ، وجد نفسه ، سجين الأرض ، بصورة أعمق . النار والهواء ، فيه ، كانا يتقاتلان مع الماء والتراب . إنه نسر مغلول إلى صخرة . والطيور الصغيرة هي التي تنهش قلبه .

زمانه لم يأت بعد . كانت مبكرة جداً تلك الرؤية عن عيد ميلاد على الأرض! مبكر جداً ذلك الأمل بمحو الآلهة الزائفة ، والخرافات الفظة ، والأدوية الرخيصة . على اهل الأرض أن يمروا بفترة مخاض بالغة الطول ، قبل

أن يكونوا في النور الناصع للفجر . الفجر كلمة حبلى به... ويبدو أن رامبو فهم المسألة في قلبه . لم لا نفسر رغبته العارمة في الحرية ـ رغبة المحكوم بالهلاك! ـ بأنها امنية خلاصه الشخصي ؟* إنه يتكلم باسم بني آدم الذي عرف الحياة الأبدية ، لكنه استبدل بها المعرفة التي هي الموت .

حماسته الوثنية اتقاد روح تتذكر أصولها . وهو لا يتطلع إلى عودة إلى الطبيعة ، على طريقة روسو . الأمر أبعد من هذا كثيراً . إنه ينشد الرحمة . ولو انه كان قادراً على أن يؤمن ، لأسلم نفسه منذ زمن .

كان قلبه هو المشلول . وتلك الأحاديث التي كان يعقدها مع شقيقته في المستشفى لم تكن لتستأنف فقط السؤال الذي ابقاه متوتراً طيلة حياته ، وإنما البحث أيضاً . شقيقته تؤمن إيماناً مخلصاً تاماً... لم لا يستطيع هو ؟ أليسا من الدم نفسه ؟ إنه لم يعد يسألها لماذا تؤمن ، ـ بل مجرد : أتؤمنين ؟ وكانت هذه هي القفزة النهائية التي استجمع لها قواه كلها . إنها القفزة خارج نفسه ، وتحطم الأصفاد . لم يعد مهماً الان بماذا يؤمن . المهم فقط ـ أن يؤمن . في واحد من تبدلات المزاج التي يتصف بها «فصل في الجحيم» ، وبعد تفجر يرى فيه أن العقل عاد اليه ثانية ، وانه يرى العالم طيباً ، ويبارك الحياة ، ويحب بني جنسه ، يضيف : «لم تعد هذه وعود أطفال على الإطلاق . ولا رجاء النجاة من الشيخوخة والموت . اللّه يصنع قوتي . امجد اللّه» . هذا الإله الذي هو قوة الإنسان ، ليس الهاً مسيحياً ، ولا الهاً وثنياً . إنه اله يستطيع بلوغه ، كل جنس ، وطائفة ، وثقافة . اله يمكن أن يوجد في كل مكان ، وفي كل زمان ، بدون حاجة إلى الوساطة . إنه الخلق نفسه ، وسيظل موجوداً ، سواء آمن الإنسان ام لم يؤمن به .

لكن الإنسان الأكثر خلقاً ، اكثر يقيناً من التعرف على صانعه . أما

* يجب ان تكون لي كائنات تشبهني ـ لوتريامون .

اولئك الذين يعـاندون بصـورة أشـد ، فـهم لا يفـعلون غـيـر مـجـرد أنـهم يشهدون ، اكثر ، بوجوده .

إن النضال ضده بطولي كالنضال من أجله . والفرق أن من يناضل ضده يكون ظهره الى الضياء . فهو يحارب ظله هو . حتى إذا أنهكته لعبة الظل هذه ، وخر ، أخيراً ، ساجداً... كشف الضوء الذي يغمره ، البهاء الذي حسبه أشباحاً . هذا هو استسلام الكبرياء والأنانية المطلوب من الجميع ، كباراً أو صغاراً .

لا يستحق الشاعر أن يسمي نفسه خالقاً إلا اذا اعترف لنفسه أنه ليس سوى أداة . «المؤلف ، الخالق ، الشاعر! هذا الرجل لم يوجد بعد!» ، هكذا تحدث رامبو في غرور الشباب . لكنه كان يعلن عن حقيقة عميقة . فالإنسان لا يخلق شيئاً من عنده ، وبنفسه . كل شيء قد خلق من قبل ، كل شيء قد جرى التنبؤ به... ومع هذا ، فهناك الحرية . حرية أن تنشد مدائح الله . وهي أسمى ما يستطيع الانسان القيام به ، وهو حين يقوم بهذا يتخذ موضعه إلى جانب خالقه . هذا الأمر هو حريته وخلاصه ، ما دام السبيل الوحيد ، ليقول نعم للحياة . الله كتب الموسيقى ، والله يقود الأوركسترا . ودور الإنسان أن يؤدي موسيقى بجسده . موسيقى سماويه ، وإلا فهي متنافرة النغمات .

ما ان نقلت الجثة إلى المنزل ، حتى انسلت ام رامبو لتهيء مستلزمات الجنازة . وبأسرع وقت ، ووري التراب ، جسده الذاوي ، المبتور ، الذي اخترمته آثار العذابات . وكأن امه كانت تريد التخلص من الطاعون . وربما طهرت المنزل بالأدخنة ، بعد عودتها من المقبرة ، حيث سارت هي وشقيقته إيزابيل وراء النعش . كانت الاثنتان ، وحدهما ، مشيعيه .

بعد أن «تخلصت» من العبقري ، تستطيع السيدة رامبو الآن التفرغ بسلام ، إلى الحيوانات والخضروات ، إلى المدارات التافهة لحياتها الريفية التافهة .

أي أم هذه! أي تجسد للغباء ، والتعصب ، والغطرسة ، والعناد! كلما كان العبقري الموجع يهدد بإلقاء نفسه في الجحيم ، وكلما رأت روحه المعذبة تذوي ، كانت هناك بمذراتها ، تطعنه ، او تصب شيئاً من الزيت المحرق على جراحه . هي التي دفعته إلى العالم ، وهي التي أنكرته ، وغدرت به ، واضطهدته . وهي التي حرمته حتى مما يتوق له كل فرنسي : فرح أن تكون له جنازة جيدة .

بعد أن أسلم الجسد أخيراً إلى الديدان ، عاد رامبو إلى مملكة الموت ، حيث يبحث هناك عن امه الحقيقية . لم يعرف في الحياة إلا هذه الساحرة الشريرة ، هذه العجوز المشاكسة التي تقفز من حقويها ، مثل ترس ساعة ضائع .

ثورته على طغيانها وغبائها قادته إلى العزلة . وبعد أن شوهت طبيعته الحنون تشويهاً تاماً ، أمسى عاجزاً ، إلى الأبد ، عن منح الحب أو تلقيه . لم يعرف إلا كيف يواجه إرادة بإرادة . وفي أفضل الأحوال عرف الشفقة ، لا الحب .

في شبابه نراه المتحمس المتعصب . لا مساومة . المتحول المباغت ، فقط . وكثوري ، كان يبحث ، مستميتاً ، عن مجتمع مثالي يستطيع أن يرقأ جرحه فيه . ذلك الجرح المميت الذي لم يبرأ منه ، أبداً . أضحى مستبداً ، إذ لم يستطع شيء أن يمتد جسراً على الفراغ بين الواقع والمثال ، سوى كمال يتلاشى فيه الخطأ والزيف . الكمال وحده هو المستطيع إزالة ذكرى جرح تجري أعمق من نهر الحياة .

ولأنه كان غير قادر على التكيف والاندماج ، فقد ظل يبحث بلا نهاية ـ كي يكتشف ، فقط ، أن البرء ليس هنا ، ليس هناك ، ليس هذا ، ليس ذاك . تعلم ليسية كل شيء . وظل تحديه الشيء الإيجابي الوحيد في فراغ النفي الذي يتخبط فيه . لكن التحدي غير مثمر ؛ فهو يستنفد القوة الداخلية .

هذا النفي يبدأ وينتهي ، بعالم المخلوقات ، بتلك التجارب التي لا تُعلّم شيئاً . ومهما كانت تجربته الحياتية واسعة ، إلا أنها لم تمض في العمق إلى الحد الذي يجعله يمنحها معنى . ذهبت العارضة ، والمرساة ، معاً . وحكم عليه بالانجراف . لذا فإن السفينة التي ظلت تصطدم بكل نتوء وماء ضحضاح ، والتي تستسلم ، عاجزة ، أمام هبة كل عاصفة ، يجب أن تتحطم أخيراً ، وتغدو حطاماً طافياً . على من يبحر في بحر الحياة ، أن يغدو ملاحاً ، أن يتعلم التعامل مع الريح والموج ، بالقوانين والمقاييس . إن كولومبس لا يهزأ بالقوانين ، لكنه يمنحها امتداداً ، ولا هو يبحر نحو عالم خيالي . إنه يكتشف عالماً جديداً ، بالمصادفة . لكن هذه المصادفات ثمار شرعية للجسارة . وهذه الجسارة ليست حماقة ، وإنما هي نتاج اليقين الداخلي .

العالم الذي بحث عنه رامبو ، أيام شبابه ، كان عالماً مستحيلاً . وقد ملأه ، وأغناه ،وجعله نابضاً بالحياة ، وغامضاً ـ ليعوض نقص هذه الخصائص في العالم الذي ولد فيه . العالم المستحيل هو العالم الذي لا تسكنه حتى الآلهة . عالم الكرى الذي يطلبه الطفل حين يحرم من صدر الأم . (هنا ، قد يحلم البقر الدرباني ، وحيوانات شواطئ البحر الميت الغريبة .) أما في اليقظة ، فلا يمكن الحصول عليه إلا بالهجوم ، وهذا اسمه الجنون . الجنون الذي قد يكون رامبو تجنبه ، كما يجزم البعض ، وراء متاريس الكومونة الدامية . كلنا يعلم أنه اجفل ، بغتة ، وهو على شفا الكارثة . لكن الأمر ليس ذاك بالتحديد! إنه يتصرف كمن اخترق بنظره ، الأكاذيب والأضاليل . لن يكون مغفلاً ومخلب قط ، فالثورة فارغة ومقززة ، كالحياة اليومية ذات التواطؤ والإستسلام . والمجتمع ليس سوى تجمع أغبياء عجزة ، وأوغاد ، وأشرار . من هذه اللحظة لن يؤمن إلا بنفسه . وإذا اقتضت الضرورةفسوف يأكل خراءه . وعلى الفور ، يبدأ الهروب والتطواف بلا هدف ، والانجراف بلا توقف .

وكل تلك الوقائع المزدراة الخسيسة التي ما كان ليقارفها ، تغدو خبز يومه . إنها بداية الهبوط ، ولا خيط يدله على الخروج من المتاهة المظلمة .

الخلاص الوحيد الذي يعترف به هو الحرية ، والحرية بالنسبة له هي الموت كما سوف يكتشف .

لم يصور احد ، مثل رامبو ،حقيقة أن حرية الفرد المعزول هي سراب . الفرد المنعتق فقط ، هو الذي يعرف الحرية . هذه الحرية منتزعة . إنها تحرير تدريجي ، نضال بطيء شاق ، تطرد فيه السعالي . السعالي لا تذبح ، البتة ، فالأشباح حقيقة بمقدار المخاوف التي تستدعيها . أشار رامبو مرة في «رسالة الرائي» الشهيرة ، أنه لكي يعرف المرء نفسه ، عليه التخلص من العفاريت التي تسكنه . الكنيسة لم تبتدع هذه المخاوف التي تأخذ العقل والروح ، كما ان المجتمع لم يخلق هذه التقييدات التي ترهق المرء وتؤرقه .

كنيسة تهدم ، وتُبنى أخرى . نمط مجتمع يزول ، ليحل آخر . والمتمردون لا يخلقون سوى انماط جديدة من الطغيان . وما يعانيه الإنسان فرداً ، يعانيه كل الناس ، أعضاء في مجتمع . (رأى أبيلار أن اللّه يتألم حتى من موت أرنب .)

احتج رامبو في صباه قائلاً : «كل ما عُلمناه زائف .» ، وكان محقاً ، الحق كله ، لكن واجبنا على هذه الأرض أن نكافح التعليم الزائف بجلاء الحقيقة التي في داخلنا . ونحن نستطيع تحقيق المعجزات حتى منفردين . لكن المعجزة العظمى ان نوحد كل الناس في طريق التفاهم . والمفتاح هو المحبة . علينا أن نخترق الأكاذيب ، والزيف ، والضلالات ، ونتغلب عليها من خلال الاندماج . هذا المسار يتخذ له اسم التضحية الشاق .

حين انكر رامبو الحقيقة الداخلية من اجل الحقيقة الخارجية وضع نفسه في أيدي القوى السوداء التي تحكم الأرض . وهو برفضه الانصياع إلى الظروف التي ولد فيها ، اسلم نفسه إلى المجرى الراكد . وتوقفت الساعة ،

فعلاً ، بالنسبة له . من الآن سوف «يقتل الوقت» كما نعبر الآن بدقة لا تصدّق . ومهما كان فعالاً ، فالبارومتر لن يسجل إلا الضجر . إن فاعليته لا تؤكد إلا مجرد لا علاقته . إنه جزء من الخواء الذي أراد مرة أن يمد عبره قوس قزح الكمال غير المكين . إن سلّم يعقوب أحلامه ، الذي كان يسكنه أهل البشارة ، والرسل من عالم آخر ؛ قد ذاب .

وجاءت الأشباح . وأصبحت في الواقع ، حقيقية جداً .

لم تعد الأشباح تهاويل خيال ، بل قوى تتخذ شكلاً مادياً ذا واقع مُهَلْوَس . لقد استعان بالقوى التي ترفض النفي في عمق الضباب الذي برزت منه . كل شيء مستعار ، كل شيء بَديل . إنه لم يعد ممثلاً ، فهو الآن عامل . في عالم المخيلة يمتلك حرية بلا حد ، وفي عالم المخلوقات يمتلك قوة فارغة ، وممتلكات فارغة . هو الان لا يجلس في مجلس الرب ، ولا في مجلس اللوردات . إنه في شراك السلطات والإمارات .

لا سلام ، ولا توقف عن الكدح . الوحدة والعبودية نصيبه . أيحتاج جيش إلى البنادق ؟ سيجهزه ـ بربح . ولا يهمه من يكون الجيش ، ولمن ـ سيبيع لكل من يريد أن يقتل . لتقتُلْ ، ولتُقتَلْ . الأمر واحد بالنسبة له .

أهناك سوق للرقيق ؟ لقد تعامل بالقهوة ، والتوابل ، والصموغ ، وريش النعام ، والبنادق... لم لا يتعامل بالرقيق أيضاً ؟ انه لم يأمر الناس بقتل بعضهم ، ولا بأن يكونوا رقيقاً . لكن ما دام الأمر هكذا ، فلسوف يستفيد منه إلى أقصى حد . فبربح جيد ، قد يستطيع أن يتقاعد يوماً ما ، ويتزوج يتيمة .

ليس ثمة شيء بلغ من النظافة أو القذارة إلى حد لا يستطيع المتاجرة به . ما الذي يهم ؟ هذا العالم لم يعد عالمـ(ـه) . بالتأكيد . إنه العالم الذي لم يغادره إلا ليعود من الباب الخلفي . كم يبدو كل شيء أليفاً الآن ؟ ورائحة العفن تلك... إنها تثير الحنين! حتى الرائحة المتميزة للحم الخيل المحروق ـ أو انها مختَبأ له ـ أليفة في منخريه .

وهكذا ، كما في مرآة معتمة ، يقيم الشبح ، موالياً رقصته الكريهة ، والتي كانت عميقة يوماً ، مثل استعراض أمام عينيه . إنه لم يسيئ إلى أحد ، ليس هو الذي يسيء . بل لقد حاول حتى أن يفعل خيراً حين يستطيع .

طوال حياته لم ينل إلا الرأس القذر للعصا... فهل يمنع الآن إن حاول الحصول على شيء لنفسه ، شيء قليل من المرق الذي يسيل دوماً ، لكن ، بعيداً عن متناوله ؟

هكذا يناجي نفسه في الحبشة . إنها الزرافة البشرية تتحدث إلى نفسها في العشب الطويل للمرج الفسيح . يستطيع الآن أن يسأل :

« Qu est mon neant, au pres de la stupeur qui vous attend? »

«ما عسى أن يكون عدمي بإزاء الانشداه الذي ينتظركم ؟»

إن ما جعله متفوقاً هو كونه بلا قلب . ومن المدهش أن رجلاً «بلا قلب» ، كما اعتاد أن يوقع ، يظل لثماني عشرة سنة ، يقطع من قلبه ويأكل! لم يفعل بودلير سوى أنه كشف قلبه عارياً ، لكن رامبو كان يمزق قلبه ويلتهمه... ببطء .

وهكذا أخذ العالم ، يتخذ بالتدريج ، شكل زمن اللعنة . الطيور تتهاوى ميتة قبل أن تبلغ الأرض . والوحوش تندفع إلى البحر لتغرق فيه ، والعشب يذوي ، والبذرة تتعفن . وتتخذ الطبيعة الهيئة القاحلة المشوهة للتعس . والسماوات تعكس خواء الأرض . والشاعر المشمئز من امتطائه صهوة الفرس المتوحشة عبر بحيرات الاسفلت ذي الأبخرة ، يحزّ عنقه . إنه يخفق عبثاً بجناحيه البدائيين . الأوبرا الهائلة تنهار ، وتهبّ الريح العاوية . والأرض البوار مهجورة إلا من الساحرات الحنقات ، ساحرات الأزمنة الغابرة . ومثل زبانية بمذاري... يهجمن عليه . إن ترحيبهن اكثر صدقاً من ذلك الدغل الرؤيوي ذي الجلال الشيطاني . كل شيء حاضر الان ، لإكمال حفلة الجحيم ، التي تمناها ، مرة .

في محاولته التغلب على شيطانه (الملاك المتخفي) عاش رامبو حياة لا يتمنى ألد عدو أسوأ منها عقوبة على محاولته (أي رامبو) الإفلات من الصفوف .

ظلِ حياته المتخيلة وجوهرها ، كلاهما ، هما اللذان كانا يمدان جذورهما في البراءة . والميزة العذرية لنفسه ، هي التي جعلته غير متكيف ، والتي أدت به ، بشكل خاص ، إلى نوع جديد من الجنون ـ الرغبة في التكيف التام ، والمطابقة التامة . إنها الاستبدادية القديمة نفسها ، تنفجر من قوقعة النفي .

وثنائية الملاك والشيطان ، التي وجد حلها مستحيلاً ، قد ثبتت . والحل الوحيد ، هو الانحلال عددياً . فعندما رأى انه لا يستطيع أن يصبح نفسه ، فهو يستطيع أن يصبح شخوصاً لا منتهية العدد . وقد عبّر «جاكوب بوهم» عن هذا الأمر ، منذ زمن طويل حين قال :

«من يمتْ قبل أن يموت ، يتحطم حين يموت» . هذا هو القدر الذي يواجه الإنسان الحديث : فهو بتجذره في المجرى ، لا يموت ، بل ينهار مثل تمثال ، ينحلّ ، وينتهي إلى اللاشيء .

لكن هناك جانباً آخر ، لأرضانية رامبو المبالِغة . إذ أن رغبته في امتلاك الحقيقة جسداً وروحاً ، حنين إلى ذلك الفردوس السفليّ الذي سماه بليك «بولاه» . وهي تمثل حالة سموَ الإنسان الكامل وعياً ، الذي يكتشف ـ حين يتقبل الجحيم بلا قيد ولا شرط ـ فردوساً من خلقه هو . هذه هي قيامة الجسد . وهي تعني أن الانسان غدا ، أخيراً ، مسؤولاً عن مصيره . جرّب رامبو أن يعيد وضع الانسان على هذه الأرض ، بشكل كامل . ورفض الاعتراف بروح مخلوقة من الأجساد الميتة . ورفض كذلك الاعتراف بمجتمع مثالي مكّون من أجساد بلا روح ، تتلاعب بها مراكزها السياسية او الاقتصادية .

أما الطاقة المفزعة التي أبداها ، طوال مهنته ، فقد كانت الروح الخلاّق الذي كان يعمل...... من خلاله . إن أنكر الأب والإبن فلن ينكر الروح القدس . الخلق هو ما يعبد ، والخلق هو ما يمجد .

ومن هذه الحمّى تأتي «الحاجة إلى التدمير» ، ملمَعاً إليها أحياناً . وهذا التخريب ، ليس تخريباً عامداً ، أو ثأرياً.....بل هو تعهد الأرض كي تطلع منها براعم جديدة . هدفه كله ، أن يمنح الروح مطلق العنان . إن رامبو ، برفضه ثانية أن يسمي الإله الحق ، أو يعرّفه ، او يحدده ، كان يطمح إلى خلق فراغ يمكن لتصوّر الله أن يتجذّر فيه . لا يمتلك رامبو ابتذال أو ألفة القسيس الذي يعرف الله ويتكلم معه ، كل يوم . عرف رامبو أن ثمة لقاء أسمى للروح بالروح . عرف أن المشاركة حوار صامت يتم في صمت كامل ، ومهابة ، وذلة . وهو ، هنا ، اقرب إلى العبادة منه إلى التجديف .

كان التنوير لأولئك الذين يطلبون أن يكون الخلاص ذا معنى .

أليست «الأغنية العقلانية للملائكة» متابعة لجهد فوري ؟

التأجيل نغمة الشيطان ، ومعه مخدّر السهولة .

يكتب رامبو في إحدى رسائله من الحبشة : «كم هو مضجر! ما الذي أفعل هنا ؟»

ما الذي أفعل هنا ؟ صرخة اليأس هذه تلخص نداء المغلول إلى الأرض .

لاحظ ايدجل ركوورد وهو يتحدث عن سنوات النفي الطويلة التي تنبأ رامبو بها ، لنفسه : «الأمر الذي بحث عنه رامبو حين خرج من القوقعة البشرية ، الوسائل التي يستطيع بها تعزيز نفسه في وضع الطهر السامي ، والتحرر من الوهم الشبيه بالتحرر الإلهي ، الذي انبثق فيه» .

لكن المرء لن يفلت من هذه القوقعة البشرية ، حتى بالجنون . كان رامبو أشبه بالبركان الذي استنفد نيرانه فخمد . ولو انه انبثق لقضى على

نفسه وهو في عنفوان مراهقته . إنه لباق هناك ، منتصب على القمة ، الملك الشمس الفتى .

رفضُ البلوغِ هذا يحمل في رأيي ، بهاءً مؤثراً .

ماذا يبلغ ؟

«ماذا أبلغ ؟» نستطيع أن نتخيله يسأل نفسه هذا السؤال .

أيبلغ رجولة تعني العبودية والإخصاء ؟

لقد تبرعم بصورة خارقة... لكن... أن يزهر ؟

تفتُّحُ زهرته يعني التلاشي في الفساد . فاختار أن يموت في البرعم .

إنها الإيماءة العليا للشاب المنتصر .

وسيسمح بأن تُذبح أحلامه ، لكن دون أن تُلوّث . كانت لديه لمحة عن الحياة في بهائها وامتلائها ، ولن يخون هذه الرؤية بكونه مواطناً مدجّناً في هذا العالم . «هذه الروح الضالة بيننا جميعاً» ، هكذا وصف نفسه أكثر من مرة . وحيداً ، ومحروماً ، أبلغ شبابه حدوده القصوى ، وسيطر على هذا الميدان كما لم يسيطر عليه من قبل ، بل استنفده . استنفد كل ما نعرف منه ، في الأقل .

والجناحان اللذان نبتا له ، تعفَّنا ، في قبر العذراء* الذي رفض أن يغادره .

إنه ليموت في رحم كينونته نفسه ، طاهراً ، سليماً ، ولكن في البرزخ .

خاصية اللاطبيعي هذه ، هي مساهمته المتميزة في ملحمة أفعال الرفض .

إن عنصر الكبح (النرجسية) الذي هو جانب آخر من الصورة ، يقدم خوفاً اكبر من المخاوف الأخرى كلها ـ فقدان الهوية . هذا التهديد الذي كان يحس به دائماً ، حكم على نفسه ، بذلك السلوان الذي يئس مرة من الوصول اليه . عالم الحلم يلفه ، يخمده ، يخنقه : فيغدو مومياء حنطتها وسائله هو .

---

* الطور الذي يلي اليرقة من اطوار استحالة الحشرة .

أحب أن أفكر به ، باعتباره كولومبس الشباب ، والشخص الذي منح امتداداً لحدود هذا الميدان الذي لم يكتشف إلا جزئياً . يقال : ينتهي الشباب حين تبدأ الرجولة . إنها لجملة بلا معنى ، فمنذ مطلع التاريخ ، لم يتمتع الإنسان تمتعاً كاملاً بشبابه ، ولا عرف الإمكانات غير المحدودة للرجولة . كيف يستطيع المرء أن يعرف بهاء شبابه وامتلاءه ، إن كانت طاقاته مستهلكة في مكافحة أخطاء الآباء والأسلاف ، وزيفهم ؟ أعلى الشباب أن يهدر قوته في الفكاك من قبضة الموت ؟ هل رسالة الشباب مقتصرة على التمرد ، والتدمير ، والاغتيال ؟ ألا يقدم الشباب إلا للتضحية ؟ ماذا عن أحلام الشباب ؟ أمقدر أن ينظر إليها ، دوماً ، كحماقات ؟ أتظل مسكونة بالسعالي وحدها ؟

الأحلام هي براعم المخيلة وأغصانها الأولى : ولها الحق في أن تعيش حياة طاهرة أيضاً . اخنقوا أو شوهوا أحلام الشباب ، تحطموا المبدع . وحيث لا شباب حقيقي ، فلا رجولة حقيقية .

وإن كان المجتمع سيغدو مثل مجموعة مشوهين... أفليس هذا عمل مربينا ومدرسينا ؟ اليوم ، كما هو الأمر بالأمس ، لا يجد الشاب الذي يريد أن يعيش حياته الخاصة ، مكاناً يتوجه اليه ، ومكاناً يحيا فيه شبابه ، إلا إذا ارتدّ إلى شرنقته ، وأغلق كل المنافذ ، ودفن نفسه حياً ، لقد تبدل تبدلاً عميقاً مفهوم أمنا الأرض باعتبارها «بيضة فيها كل الأشياء الطيبة» .

فالبيضة الكونية فيها صفار فاسد . هذه هي الصورة الراهنة لأمنا الأرض . لقد تتبع المحللون النفسانيون السم حتى الرحم... لكن لأي نتيجة ؟ في ضوء هذا الاكتشاف العميق ، سمح لنا بالقفز من بيضة فاسدة إلى اخرى فاسدة .

***

سواء اعتقدنا بصحة هذا أم لم نعتقد ، فالأمر جحيم خالص ، صرف . قيل عن رامبو إنه «احتقر اعلى متع العالم .» ألا نحبه اكثر لهذا ؟ لماذا يزيد صفوفَ الموتى والمتعفنين ؟ لماذا ينسِلُ وحوشاً جديدة للنفي واللاجدوى ؟ دع المجتمع يسحق جثته المهترئة! لتكن لنا سماء جديدة وأرض جديدة! ـ

كان ذلك معنى ثورة رامبو المستميتة .

مثل كولومبس ، أبحر رامبو باحثاً عن طريق جديد إلى الأرض الموعودة . أرض الشباب الموعودة!

في فتوته البائسة تغذى على الكتاب المقدس ، وأمثال «روبنسن كروزو» من الكتب التي كانت تقدم إلى الأطفال لقراءتها . وكان الكتاب الذي شغفه اكثر من سواه ، بعنوان «الإقامة في الصحراء» .

مصادفة فريدة ، أن يقيم في الصحراء ، حتى وهو طفل ، هذه الصحراء التي ستغدو جوهر حياته . أتراه رأى نفسه ، حتى في ذلك الزمن البعيد ، وحيداً ، بعيداً ، منقطعاً عل صخور الشواطئ ، متخلياً عن تمدنه ؟

إن كان أحد يرى بعينه اليمين ، وعينه الشمال ، فهو رامبو . وأنا اتحدث بالطبع ، عن عيون الروح . بإحداهما كانت له القدرة على النظر عبر اللانهاية ، وبالأخرى كانت له القدرة على النظر عبر «الزمن والمخلوقات» كما هو وارد في «الكتاب الصغير للحياة الكاملة» .

لكن يقال «إن عيني روح الإنسان هاتين ، لا تستطيعان القيام بعملهما في وقت واحد . فإذا نظرت العين اليمين في اللانهاية ، فعلى العين اليسرى أن تغمض نفسها ، وتمتنع عن اداء عملها ، كما لو انها ميتة .»

هل اغمض رامبو العين الخطأ ؟ وإلا فكيف نفسر فقدانه الذاكرة ؟ وتلك الروح الاخرى التي تدرّع بها ليحارب العالم ، هل جعلته محصّناً ؟ حتى وهو مسلح كالسرطان ، لم يكن صالحاً للجنة ، ولم يكن صالحاً للجحيم أيضاً . لم

يكن يمكنه ، في أي ظرف ، أو ميدان ، أن يرسو طويلاً . كان ينال موضع إبهام ، ولا يجد موضع قدم . وكأنما الأرواح الشريرة تطارده ، نراه مدفوعاً من طرف قصي إلى آخر .

في بعض النواحي ، كان غير فرنسي... قدر ما أمكنه أن يكون .

لكن لا أشد من لا فرنسيته ، حين يتعلق الأمر بالشباب .

كان يتسم بالتصرّف الغِرّ لليسار الذي يكرهه الفرنسيون . كان منافياً ، مثل محارب من الفايكنج في بلاط لويس الرابع عشر . «خلق طبيعة جديدة ، وفن جديد ، متطابق معها» هما كما قيل ، مطمحا رامبو . وفي فرنسا اليوم ، نرى هذه الأفكار تماثل في سلامتها والأخذ بها ، عبادة صنم بولينيزي . لقد شرح رامبو في رسائله من إفريقيا ، كيف يستحيل عليه استئناف حياة الأوربي .

واعترف حتى بأن لغة اوربا صارت غريبة عنه . في الفكر والكينونة كان أقرب إلى «إيستر آيلاند» منه إلى باريس ، او لندن ، او روما . والطبيعة الوحشية التي أبداها منذ الطفولة ، نمت اكثر فأكثر ، مع السنوات . وكانت اكثر كشفاً عن نفسها في مساوماته وتنازلاته ، مما في تمرده . ظل ، دائماً ، اللامنتمي . يلعب لعبته وحيداً ، محتقراً الطرق والأساليب الملزم باتباعها . مبدياً رغبته في تطواف العالم متشرداً ، لا في الاستيلاء عليه .

وبينما يحلم البقر الدربانيّ ، يحلم هو أيضاً . إنه لأمر أكيد ، لكننا لا نعلم ، فقط ، ما هي تلك الأحلام . نحن نسمع فقط عن شكاواه وطلباته ، لا عن آماله وصلواته . نعرف احتقاره ومرارته ، لا رقته ، وحنينه .

نراه منهمكاً بالكثير من التفاصيل العملية ، فنظن انه قد قتل الحالم . أجل ، من الممكن انه خنق احلامه ، ما دامت مبالغة في اندفاعيتها .

من الممكن ايضاً أنه لعب دور سليم العقل بمكر المجنون الخارق ـ

خشية الفناء في تلك الآفاق الساطعة التي أشرع أبوابها . ماذا نعرف ، فعلياً ، عن حياته الداخلية في السنوات الأخيرة ؟ لا شيء ، عملياً .

لقد انغلق تماماً . وحين يوقظ نفسه ، فلمجرد أن يطلق دمدمة ، أو أنَّة ، أو شتيمة . وبوجه «أناباز» الشباب ، وضع «كاتاباز» الشيخوخة .

لا مكان وسطاً ـ باستثناء النضوج الزائف للرجل المتمدن .

المكان الوسط هو ، أيضاً ، أرض التقييدات الجبانة .

لا غرابة في أنه رأى القديسين رجالاً أقوياء ، ورأى النُسّاك فنانين .

فلقد كانت لديهم القوة ليعيشوا بمنأى عن العالم ، متحَدّين الجميع ، إلا اللّه .

لم يكونوا الديدان التي تنحني وتدبّ... التي تقــول «نعم» لكل كذبة ، خوف أن تفقد سلامها ، أو سلامتها ، ولم يتخوفوا من أن يعيشوا حياة جديدة تماماً! مع هذا ، لم تكن رغبة رامبو أن يعيش بمنأى عن العالم . لقد أحب العالم ، حباً نادراً . حيثما اتجه ، سبقه خياله ، فاتحاً مشاهد مجيدة ، تتحول بالطبع ، إلى سراب ، دائماً . كان لا يهتم إلا بالمجهول . ولم تكن الأرض بالنسبة إليه ، موضعاً محجوزاً للنفوس التائبة الآسفة التي تخلت عن الروح ، بل الأرض كوكب حيّ ، نابض ، غامض ، حيث لو أدرك الناس هذا ، فقط ، لعاشوا ملوكاً . المسيحية جعلت منها قذىً للعين ، ومسيرة التقدم كانت مسيرة ميتة . قلِّبْ وجهك ، اذن! ولتبدأ حيث خلّف المشرق بهاءه! واجه الشمس ، وابعث بسلامك إلى الأحياء ، ومجّد المعجزة!

رأى العلم يستحيل اكذوبة كبرى كالدين ، والوطنية مهزلة ، والقومية غشا ، والتعليم جذاماً ، والأخلاق أخلاق آكلي لحوم البشر . بكل رمح نافذ كان يطعن عين الثور . لا أحد احَدُّ بصراً ، وأصدق هدفاً ، من الفتى ذهبي الشعر ، ذي السابعة عشرة ، والعينين الزرقاوين زرقة زهرة العناقية .

« يسقط الشيوخ! الكل فاسد هنا . » . إنه يطلق الرصاص يميناً وشمالاً ، وما ان يطوّح بهم حتى يواجهوه ثانية ، محدّقين فيه . ويفكر مع نفسه :
لا جدوى من رماية الأطباق الطينية . لا... إن مهمة الهدم تتطلب أسلحة اكثر فتكاً . لكن من اين يأتي بها ؟ وفي اية ترسانة ؟
في هذه اللحظة يتقدّم الشيطان . ويمكن تصور الكلمات التي اختارها...
«استمر في هذا الطريق... لتحلّ في مستشفى المجانين . أتظنك قادراً على قتل الموتى ؟ دع هذا لي ، فالموتى هم لحمي . ثم انك لم تبدأ حتى بأن تحيا .
أنت بمواهبك تستطيع امتلاك العالم إن اردت . أنت متفوق لأنك بلا قلب . لماذا تجرجر نفسك بين هذه الجثث المتعفنة الماشية ؟ »
وإذا برامبو يقول له : « موافق » ، متباهياً أيضاً ، بأنه ـ وهو الرجل المعقول ـ لم يسرف في الكلمات . لكنه ، خلافاً لفاوست الذي ألهمه ، نسي أن يطلب الثمن . وربما لم يكن بذلك الصبر الذي يجعله ينتظر حتى يسمع شروط الصفقة . بل من الممكن تماماً ، انه كان من السذاجة بحيث لم يظن ان هناك صفقة .

ذلك لأنه كان بريئاً دائماً ، حتى وهو مضيّع . براءته هي التي قادته إلى أن يؤمن بأن هناك أرضاً موعودة ، فيها الشباب سيّدٌ . ويظل يؤمن بها ، حتى لو ابيضّ شعره . بل لم تكن لديه ـ حتى حين غادر مزرعة روش لآخر مرة ـ فكرة انه سيموت على سرير مستشفى بمرسيليا... وإنما فكرة الإبحار من جديد إلى بلاد أجنبية . وجهه ، دائماً ، مستدير نحوالشمس .
« شمس وجسد . وفي الفجر يغني الديك الذهبي » . وفي البعيد ، مثل سراب متناء أبداً : المدن الرائعة . وفي السماء شعوب الأرض ، تسير وتسير . في كل مكان اوبرات خرافية ، اوبراته ، واوبرات الرجال الآخرين : الخلق يفسح المجال للخلق ، والتهاليل تتلو التهاليل ، ولا نهاية تتبع لا نهاية .

إنه ليس بحلم حشاشين ، إنه حلم الرائي .

الخديعة التي حلت به ، كانت أفظع خديعة أعرفها . طلب اكثر مما جرؤ عليه أي إنسان ، ونال أقل مما يستحق أي إنسان ، وبعد أن سحقته المرارة واليأس ، تحولت أحلامه إلى ركام . لكن هذه الأحلام ، تظل عندنا ، طاهرة ، نقية ، كما في يوم ولادتها . ومن الخراب الذي مرّ به لم تلحقه وصمة .

بياض ناصع ، راعش ، حيّ... طهّره اللهيب . لقد أسكن نفسه ، اكثر من أي شاعر ، في ذلك الموضع المعرّض للإصابة : القلب .

في كل ما هو كسيرٌ ـ فكرةً ، إيماءةً ، فعلاً ، سيرةً ـ نرى أمير «الأردين» الأشم .

لترقد روحه بسلام!

الفهرس





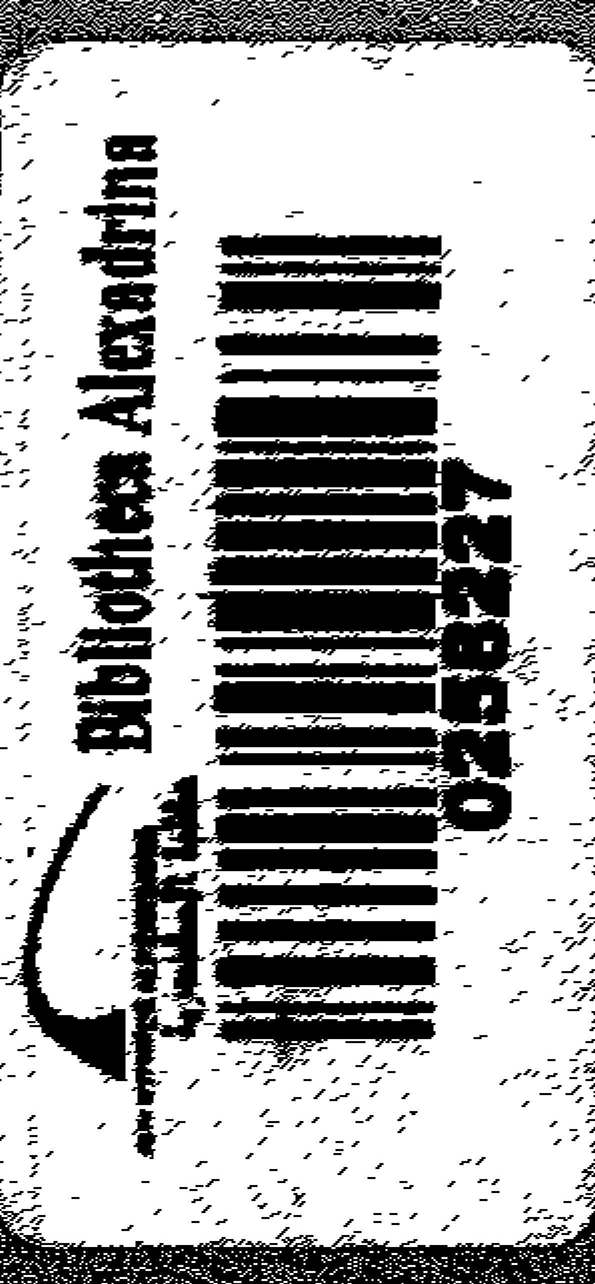
ان السؤال الواحد الأحد الذي يواجهنا هو : الى أي مدى نستطيع تأجيل الحتمي ؟

ترى ماذا علينا أن نقول ، حين نفكر بأن ولداً هز العالم من أذنيه ؟

أليس ثمة أمر معجز في ظهور رامبو على هذه الأرض ؟ شأنه شأن يقظة بوذا ، وتقبل المسيح الصليب ، ورسالة خلاص جان دارك المذهلة ؟

فسر فعله كما شئت ، إشرح حياته كما أردت... وسيظل نوراً لا يشحب . فالمستقبل كله له ، حتى لو لم يكن أمامنا مستقبل .

هنري ميللر



ISBN => 2-84305-101-0
EAN => 9782843051012